الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي لميلة
معهد الآداب و اللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المرجع.....

الشعر الثوري عند مفدي زكريا اللـهب المقدس" أنموذجا"

مذكّرة مقدمة لنيل شهادة اللّيسانس، في اللّغة والأدب العربي.
تخصص: أدب عربي.

إعداد الطلبة:

* عليوط حدة الحفيظ
* طليعة هدى

إشراف الأستاذ:

* بورايو عبد

السّنة الجامعية:2013/2012

خـــطة البـحـث :

***مقـــــدمـــــــة**

-**مدخـل :** المناخ الديني والأدبي والاجتماعي والسياسي في فترة الاحتلال

أولا : المنـــــاخ الديـــني والأدبي

أ-المســـــــاجد

ب- التنصـــير

ثانيا : المنـــاخ الاجتمـــــاعي

أ-الهـــجـــرة

ب-حـــالة العمال

ج- وضعيـــــة المرأة

ثالثا : المنـــــاخ السياســـي

الفصل الأول : نبذة عن حياة الشاعر " مفـدي زكـريا"

1-نسبه

2-أسرته

3-عوامل نبوغه

4-شخصيته

5-شاعريته

6-نشاطه السياسي

7-وفاته

8-إنتاجه الأدبي

الفـصـــل الثـــاني: الشعر الثوري عند مفدي زكريا

1- مفهـوم الثـورة

2- مفهـــوم الشعر الثـوري

3- دور الشـــــعر الثـوري في الكفاح المسلـــح

4- خصـائص الشـعر الثـوري الجزائري

5- نماذج من الشعر الثوري عند بعض الشعراء الجزائريين

6- الشـعر الثـــوري من خـلال "إليـــاذة الجزائر"

7- الشـــــعر الثــوري من خـــلال "اللهب المقدس"

الفصـــل الثـــالث : الجانب التطبيقي ، الدراسة الفنية في القصيدة الثورية عنـــد " مفدي زكـــريا" .

دعـــاء

يا رب...لا تدعني أصاب بالغرور إذا نجحت، ولا أصاب باليأس إذا فشلت

ذكرني دائما بأن الفشل هو التجربة التي تسبق النجاح.

يا رب...إذا جردتني من المال فاترك لي الأمل ، وإذا جردتني من

النجاح فاترك لي قوة العناد حتى أتغلب على الفشل، وإذا جردتني من

نعمة الصحة فاترك لي نعمة الإيمان .

يا رب...علمني أن التسامح هو أكبر مراتب القوة وأن حب الانتقام هو

أول مظاهر الضعف .

يا رب...إذا أسأت إلى الناس أعطني شجاعة الاعتذار وإذا أساء لي

الناس أعطني شجاعة العفو .

يا رب ...إذا نسيت لا تنساني .

اللهم آمين يا رب العالمين

شكر و عرفان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

نتوجه بأول شكرنا إلى المولى عز وجل الذي أنار دربنا ومكننا من القيام بهذا العمل المتواضع .

لحظات يقف فيها المرء حائرًا عاجزًا عن التعبير عما يختلج في صدره من شكر لأشخاص أمدوه بالكثير والكثير الذي أثقل كاهله ، لحظات صار لابد أن ينطق بها اللسان ويعترف بفضل الآخرين اتجاهه لأنهم وبصراحة كانوا الأساس المتين الذي بني عليه صرح العلم والمعرفة لديه، وأناروا سبيل بلوغها فنتقدم بالشكر الجزيل إلى كل أساتذة معهد الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي بالمركز الجامعي –ميلة- .

والشكر الأكبر نوجهه إلى أستاذنا المشرف " عبد الحفيظ بورايو"ونحن نعلم أن الشكر لن يوفيه حقه فالخدمة التي قدمها لنا كبيرة وتوجيهاته كانت قيمة جدا وحاولنا جهدا إتباعها.

مقدمة

لم يكن إعجابنا بشعر " مفدي زكريا" شاعر الثورة الجزائرية ،أمرًا حديث العهد أو إحساسًا آنيًا عابرًا فهذا الشعور تولد لدينا منذ مرحلة الصبا ، حينما كنا أطفالا صغارا ، على مقاعد الدراسة في مرحلة التعليم الابتدائي نرتل بعض أناشيده الرائعة (عشت ياعلم)، (نشيد الشهداء) ، (قسمًا) وغيرها من روائعه الخالدة .....

وقد زاد هذا الشعور بعد اطلاعنا على"إليـــاذة الجزائـــر" وسماعنا لها مرتلة بصوت صاحبها متنبي الجزائر والعرب ،ووجدنا فيها- وبدون مبالغة- لوحة فنية رهيبة ، رائعة، إنها جزائر الأمس، واليوم ، والغد ، بتاريخها العظيم ، وأبطالها الأشاوس وطبيعتها الخلابة ، من جبال شاهقات ، شامخات ، ومساحات خضراء ساحرة ،ووديانها التاريخية ، وصحرائها الشاسعة .

أحببنا "مفدي زكريا" وسكن قلوبنا ، ولن يفارقها إلى الأبد وصرنا نتغنى بأشعاره وأناشيده، نرددها عاليًا عبر الأزمنة والأمكنة ، خصوصا <<زمكان>> السقوط الحر؟ وانكسار شوكة العرب ، وانقراض القومية العربية ، وآنافة الإنسان العربي ، وشجاعته وإقدامه .

لقد دوت أشعاره السجون وأسالت قصائده الدموع ، بحيث كانت جدران الزنزانات أوراقًا لكلماته وبدمه كتب للجزائر والجزائريين ، وإنه من المؤكد أن تنحني الأقلام تمجيدًا والأوراق تكريمًا لهذا الشاعر الفذ المتميز بأصالته ولغته .

إنه بحق رجل عظيم ، لم يُكتب لشاعر جزائري أن ملأ الدنيا و شغل الناس ، مثل "مفدي زكريا" رغم ما لاقاه من شتى أنواع الإجحاف و التهميش من قبل النقاد والباحثين والمهتمين من أبناء بلده الجزائر ووطنه العربي ... حياته حافلة بالنضال و الأعمال ، وتجربته متميزة في الصحافة ، و أدبه غزير و متنوع ، و إن ظل جله مغمورًا مطموسًا بين ثنايا رحلة نصف قرن من الزمن.

لهذا قررنا أن نتناول في دراستنا هذه الشعر الثوري و فضلنا أن تكون عند شاعر الثورة الجزائرية بلا منازع... "مفـــدي زكـــريا".

و الغاية التي دفعتنا لمعالجة هذا الموضوع و طرق باب هذا البحث هي محاولة لإضافة ثمرة جديدة متواضعة إلى المكتبة الجزائرية بدراسة أكاديمية من شأنها المساهمة في إثراء الأدب الجزائري المعاصر.

وقد وقع اختيارنا على "مفدي زكريا" ليس تقليلاً من قيمة و أهمية الشعراء الآخرين و إنما لكونه شاعرًا مخضرمًا عاش مرحلة الثورة الوطنية و مرحلة الاستـــــقلال و كرّس أشعاره لتخليد بطولات الجزائر و تمجيدها .هذا من جهة و من جهة أخرى فإن الأدب الجزائري يمثل صفحة هامة في الأدب العربي عامة غير أن الفرص التي أتيحت للحديث عنه كان اغتنامها قليلا رغم أنها كانت متوفرة قديمًا و حديثًا على حد سواء .و قد حاولنا الإجابة عن الإشكالية التالية:

-هل أجاد مفدي زكريا في تصوير الثورة الجزائرية من خلال شعره ؟ -هل كان لشعره صدى في نفوس الشعب الجزائري عامة و الثوار خاصة؟ .

ولقد اتبعنا في دراستنا منهجًا متكاملاً إذ قمنا بتقسيم بحثنا إلى : مدخل و ثلاثة فصول ،خصصنا الفصل الثالث للتطبيق ،وانهينا عملنا بخاتمة.

تناولنا في المدخل : الحياة العامة في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي.

و في الفصل الأول تناولنا بالدراسة حياة الشاعر و كل ما يتعلق بها من نشاطات سياسية و فكرية.

والفصل الثاني فقد تطرقنا فيه إلى الحديث عن مفهوم الثورة عمومًا ، و مفهوم الشعر الثوري ، و دوره في الكفاح المسلح بالإضافة إلى خصائص الشعر الثوري الجزائري ، ثم قدمنا لمحة موجزة عن الشعر الثوري لدى بعض شعراء الجزائر : محمد العيد آل خليفة ، الأخضر السائحي ، عبد الرحمن بن العقون ، ثم انتقلنا إلى شاعرنا من خلال ديوانه "اللهب المقدس" و هو الأنموذج الذي نطبق عليه في دراستنا هذه ، لكن و قبل حديثنا عن "اللهب المقدس" كان لابد أن نعرج على شعره الثوري في "الإلـــياذة".

أما الفصل الثالث فخصصناه للدراسة الفنية في القصيدة الثورية عند مفدي زكريا.

و نختم هذا العمل المتواضع بخاتمة أدرجنا فيها أهم النتائج التي جاء بها هذا البحث.

وكأي باحث اعترضتنا جملة من المصاعب نربأ بذكرها ذلك أنها جزء من عملية البحث ، و لعلها الجزء الأساسي فيه و الذي لولاه لفقدت عملية البحث العلمي كثيرًا من أهميتها والإحساس بمتعتها الناتجة عن المعاناة.

و في الأخير لا يسعنا إلاّ أن نشكر الله العزيز و نحمده على ما مكننا لانجاز هذا العمل المتواضع ، و نتقدم بأحر الشكر و التقدير لأستاذنا المشرف"**عبد الحفيظ بورايــو**" ونشكره جزيل الشكر على توجيهاته و مساعدته لنا فقد كان خير موجه ومسدد لخطانا ومسيرتنا في هذه المذكرة آملين من المولى عز و جل أن يرقى هذا العمل إلى المستوى المطلوب.

مدخل

المناخ الديني و الأدبي و الاجتماعي و السياسي في فترة الاحتلال.

1-المناخ الديـــني و الأدبـــي

أ-المساجد

ب-التنصير

2-المنـــاخ الاجتمـــاعي

أ-الهجرة

ب-حالة العمال

ج-وضعية المرأة

3- المنـــاخ السيـــاسي

1-المنـــاخ الدينـــي و الأدبـــي :

كانت الحملة الفرنسية على الجزائر صليبية في دوافعها و أهدافها ،فلا غرابة أن تتخذ من المبشرين روادًا و دعاةً لها و تستهدي تصريحاتهم الحاقدة على الإسلام وتقتحم بصلبانهم المساجد تحولها إلى كنائس ، و دور العلم و العبادة تسخرها ثكنات لجيش الاحتلال [1].

كانت الحملة تستهدف الشعب جسمًا و روحًا ، فقد أدركت أنّ الخطر عليها لا يمكن أن يزول بإبادة الجسم وحده ، فطاردت الاثنين معا ، و تحت وطأة الضربات القاسية كان على الإسلام في الجزائر حتى أواخر القرن الماضي أن يقف موقف الدفاع عن بقاياه منطويًا عليها في زاوية أو كُتاب أو طريقة صوفية ينشر أتباعها هنا وهناك.

و يوم أطاحت قوة البطش بالإسلام ، حاولت أن تستبدله بإسلام تكيفه على حسب أهوائها فأنشأت له معاهد [2].

و قيضت له بعض (الزوايا و الطرق) تخدر الشعب بطقوس و أضاليل ، و هي بدورها مخدرة في يد المستعمر.

1- نشير إلى بعض تصريحات قادة الاحتلال التي تؤيد هذه الحقيقة قال الكردينال لافيوجري : << علينا أن نخلص هذا الشعب ، و نحرره من قرآنه ، و علينا أن نعنى على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير التي شبّ عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا على الأقل تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدا عن العالم المتحضر >>.

2 – نشير إلى المدارس الثلاثة التي فُتحت في كل من قسنطينة و الجزائر و تلمسان في سنة 1850 و التي تخصصت في تخريج رجال الدين الرسميين من قضاة و أئمة و رجال افتاء .

كانت الجزائر و مع بداية القرن قد وصلت إلى حالة خطيرة في حياتها الدينية والأدبية ، حيث شوهت عقيدتها الخرافات ، و سيطر عليها المستعمر ، فسخرها لأغراضه و أفرد عليها حمايته و رعايته و عقيدة جديدة تلبس مسوح التمدن والحضارة و تحتل عواصم البلاد ، تبارك غاصبها ، و تدعو له في خطب الجمعة ، و تمكنه من رقاب الشعب باسم الدين ، و من حريته باسم الاستقرار كما سخرت أقلامها للدعاية له ، و ألسنتها بالدعوة والخضوع لأولي الأمر منه [1].

أ-المســـاجد :

لا يخفى على أحد ما للمسجد من مكانة في نفوس المسلمين و دور هام في حياتهم ، فالعناية بالمساجد كانت سمة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم ، فلا تخلو قرية أو حي من أحياء مدن الجزائر من وجود مسجد يتوسطها مما يدل أنه (ملتقى العباد ، و مجمع الأعيان و منشط الحياة العلمية و الاجتماعية ، و هو قلب القرية في الريف و روح الحي في المدينة).[2]

فدور المساجد في بناء الأمة لم يكن خافيًاعلى الإدارة الاستعمارية لذلك كانت تستهدفها ، وبالفعل منذ أن بدأ الاحتلال الفرنسي للجزائر كانت جيوشه كلما استولت على مدينة من مدن البلاد تسرع إلى مساجدها تهدمها أو تحولها إلى كنائس أو مخازن أو متاحف...وهذا يدل على مدى حقد الاحتلال الفرنسي على الإسلام وأهله.

---

1 – أنظر مثلا خطبة الاحتفال بمسجد شرشال ، السيد حسن دراجي عبد القادر بن الحاج محمد مطبعة فونطانا 24 ذو الحجة 1321 /11 مارس 1904 الجزائر .

2– د. أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ج1 (1500–1830 م) ، ط1 ، سنة 1998 م ، ص 246.

ويتجلى ذلك بوضوح من خلال خطاب سكرتير الحاكم في قسنطينة أثناء الاحتفال بتحويل مسجد (صالح باي) إلى كنيسة ، يقول :<< إن آخر أيام الإسلام قد دنت ، وفي خلال عشرين عامًا لن يكون للجزائر إله غير المسيح .و نحن إذ أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ، أما العرب فلن يكونوا مواطنين لفرنسا إلاّ إذا أصبحوا مسيحيين جميعًا>>[1]

تلك هي مقاصد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فشغله الشاغل القضاء على كل ما له علاقة ببناء الشخصية الوطنية . و من جراء ذلك كله ألمت بالشعب الجزائري مصائب نكب بها و لكن " لم تزعزع إيمانه و لم يستول عليه اليأس أو الضعف ، بل كان يعتقد انه إنما يقاسي محنة عارضة فلابد أن يسترجع يومًا ما ضاع من شرف ، و سيحيا في أرضه حرًا سعيدًا [2] . فنهضت أحزاب و جمعيات تقاوم الاحتلال في الداخل و الخارج ، و نشير هنا بالتحديد إلى موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إزاء قضية المساجد التي تراها مؤسسات تؤدي دورا مهما في تبليغ رسالة الجمعية و مكانا للتعبد و مدرسة لتعليم المجتمع و إصلاحه و توجيهه ، و قد أشار ابن باديس إلى ذلك بقوله :"إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر و تتكون منها طبقة مثقفة الفكر صحيحة العقيدة ، و بصيرة بالدّين فتكمن هي في

1- جونسون و آخرون : الجزائر الثائرة ، ترجمة محمد علوي و آخرون ، وزارة الإرشاد القومي القاهرة ، سنة 1957 ، ص 41.

2- محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، سنة 1981 م ، ص 327.

نفوسها و لا تهمل . و قد عرفت العلم و ذاقت حلاوة تعليم أبنائها و هكذا ينشر العلم في الأمة و يكثر طلابه من أبنائها" [1].

ب-التنصيـــر :

محاولة إغراء الشعب الجزائري و إرغامه على الرِدّة بالتخلي عـــن دينـــه وذلـــك بابتداع فكرة الإدماج ، لكن هذه السياسة فشلت بتمسك الجزائريين بدينهم ووطنيتهم ممـــا جعل الاحتلال الفرنسي ينظر إلى الدين الإسلامي على أنه العائق الوحيد في عدم إنجـــاح سياسة التفرقة و الإدماج ،و هذا ما جعله يخطط للقضاء على هذا الدين بانتهـــاج سياســـة التنصير التي هي محاولة إفراغ نفوس الجزائريين من ديـــنهم و إحـــلال محلهـــا عقيـــدة النصرانية ، وقد تجلت هذه السياسة بما صرحت بـــه الإدارة الفرنســـية غـــداة احتلالهـــا لعاصمة البلاد عام 1830 م (بأن جملة أهدافها من وراء عملية غزو الجزائر هي العمل على نشر المسيحية فيها و القضاء على الإسلام) [2] ، و قد باشرت عملها هذا بمســـاهمة عدد كبير من المبشرين الذين يتلقون الدعم من الحكومة الفرنسية لبسط نفوذها الكامل على التراب الوطني ، و على هذا الأساس كان التنصير تصحبه أعمال عسكرية توسعية يقودها <<بعض الضباط الذين يعتبرون أنفسهم جنود المسيح في إفريقيا >>[3]، و هذا يعطينا فكرة واضحة عن موقف المسؤولين الفرنسيين إزاء التبشير في الجزائر على مستوى أقاليمها.

1- الشهاب ، م6 ، ج11 ، ديسمبر 1930 ، ص 692 – 693.

2- د . تركي رابح : دراسة تربوية للشخصية الجزائرية ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط2 ، ص 109.

3- مصطفى الأشرف : الجزائر الأمة و المجتمع ، الترجمة من الفرنسية د . حنفي بن عيسى المكتبة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، سنة 1983م ، ص 275.

في هــذا المنعرج الخطير الذي كاد يطبـــق فيه المستعمر علـــى الشخصـــية الوطنيـــة ويحقق غايته التي تطلع إليها ، كانت في مناطق متعددة من التراب الجزائـــري ، تبشـــر بوجهة جديدة للحياة الدينية و الأدبية ، و اتصال مباشر بالكتاب و السنة ، و تطلع نافذ إلى المستقبل.

فقد بدأت مشاعر الشعب الجزائري و أمانيه الوطنية تتجمع و تتحفز في صورة (مدرســة حرة) أو (منتدى ثقافي) أو (جريدة وطنية) غير تابعة لحكم ، أو مقيــدة براتــب ، يعقــل لسانها أو وسام يغل عنقها [1].

هذه البدايات الإصلاحية احتضنتها عوامل رافدة من الهجرة إلى المشرق ، أو التلقي منه ، فقد شد الرحال إليه في هذه الفترة رواد الإصلاح الديني في الجزائر [2] ،

التي زارها في هذه الفترة دعاة الإصلاح في المشرق [3] و اســتطاعت بعــض الروافــد المطبوعة أن تتسلل إلى داخل الجزائر .أما تلك الروافد التي انقطعت السبل دونها ، فقــط استطاعت أن تجد لها همزة وصل في (جامع الزيتونة).

هذا بالنسبة للمجال الديني أما فيما يخص الأدب الجزائري فقد أصيب بركود شامل طوال القرن التاسع عشر ، فلا نكاد نعثر في السبعين سنة الأولى للاحتلال إلاّ على أدب هزيــل

1- أول مدرسة قرآنية حرة افتتحت في تبسة سنة 1913 و أول منتدى ثقافي هو نادي صالح باي قسنطينة سنة 1901 و أول جريدة وطنية عربية هي جريدة " الجزائر " لعمر راسم سنة 1908 .

2- هاجر إلى المشرق في هذه الفترة كل من الطيب العقبي ، و البشير الإبراهيمي ، و عبد الحميد بن باديس و هم مؤسسو جمعية العلماء .

3- الإمام محمد عبده زار الجزائر سنة 1903 و في سنة 1905 انعقد مؤتمر المستشرقين الرابع عشر بالجزائر ، وكان الوفد المصري فيه يضم رجال الحركة الوطنية و الإصلاح من بينهم محمد فريد و عبد العزيز جاويش .

ركيك في جانبيه المضمون و الشكل ، فهو لا يعرف غير المدائح و قصـــائد المناســبات ميدانا له و يبقى بعيدا عن المجتمع و السياسة و معترك في الحياة.

ومن هنا أحس الأدباء و المفكرون بخطورة الوضع ، خاصة بعــد أن لا حظــوا الفــرق الشاسع بين سياسة العدو في الجزائر و سياسته في فرنسا. و في أواخر القــرن التاســع عشر بدأ الشعور بضرورة النهوض يسري في عروقهم ، و بذلك للنهضة العربيــة فــي المشرق الأثر الأعظم في نهوضهم .فقد كان اتصالهم بالمشرق بطرق ، فمبايعــة أحمــد شوقي –مثلا– بإمارة الشعر كان لها صدى في الجزائر و خلدها أكثر من شاعر ، ووفاته ووفاة حافظ إبراهيم كان لها أثر بالجزائر ، فقد رثاهما كثير من شعرائها بل إنه أقيم في بعض النوادي احتفالات تأبينية لهما مثل الحفل الذي أقيم بنــادي الترقــي ســنة 1934 ، وألقيت فيه خطب و قصائد تناولت الشاعرين و دوريهما في النهضة الأدبية و الشــعرية وانتهى الحفل بإرسال برقية إلى الشعب المصري عبرت عن مدى مشاركة الجزائــريين إخوانهم بالمشرق [1].

إضافة إلى ذلك إنّ القضايا التي عاشها المشرق العربي في جميع مجالاته كان لها اهتمام لدى الشعراء و الكتاب الجزائريين و لا سيما ما تعلق بالصراع منذ الاستعمار.

فما لبث هذا الاهتمام أن فجر صورة رائعة من الطاقة الكامنة و تحولت النظرة من نظرة مقلدة إلى نظرة تجديد ، بل تطلعت إلى مواقف نقدية تقييمية لما تتلقاه من روافد الشرق ، تتلقاه هذه بترحيب و تقدير و تفسح له صفحاتها الأولى . و كان في طليعــة مــن ســاهم

1– عمر بن قينة : في الأدب الجزائري الحديث ، (تاريخا ....و أنواعا و قضايا .....و أعلاما) ، ديوان المطبوعات الجامعية 1995 ، ص36.

بإنتاجه الأدبي شعرًا و نثرًا في صحافة العالم العربي و الإسلامي (عمر بن قدور) الذي نشر قصائده و مقالاته في جريدة (اللواء) في مصر و جريدة (الحضارة) في الآستانة وغيرهما.[1]

بالإضافة إلى عبد القادر المجاوي (1948 -1914) هذه الشخصية المتميزة بفكرها وطموحها إلى النهضة، و أملها في التغيير و الإصلاح[2]، و قد حرك هذا الرجل دواليب الحركة الفكرية بدروسه ، و ترك مجموعة من الآثار القيمة التي يستثني منها الخلف كل معاني العظمة و التي تعد اللبنة التأسيسية الأولى للسير الإصلاحي و الإنعاش الثقافي ، الذي ازداد في عهد شارل جونار الذي حاول أن يكسب المثقفين الجزائريين لصالح فرنسا لكن فشل في تحقيق ذلك ، كما تخرج على يد المجاوي كل من الشيخ حمدان لونيسي،المولود بن الموهوب و عبد الحميد بن باديس هذا الأخير الذي أسس جمعية العلماء المسلمين ، و كان أب الجزائريين في تلك الفترة لأن أفكاره ساهمت في تسوية التربية الصالحة لبعد الجزائر في القرن العشرين[3].

أما بعد ذلك فقد ظهر مؤلف يعد من الكتب القيمة من التراث الفكري الجزائري و هو تعريف الخلق برجال السلف لصالح أبو القاسم الحفناوي [4] الذي قال في مقدمته إن القطر الجزائر قد اجتهد قديما في طلب العلم بجميع أسبابه ، و أتاه من سائر أبوابه ، ووقف

1- نشر عمر بن قدور في جريدة اللواء سنة 1906 و نشر في الحضارة سنة (1911) و نشر خمسة عشر دورية عربية أخرى في المشرق و المغرب وهو صاحب جريدة (الفاروق) التي صدرت سنة 1913 و دامت إلى غاية 1915 – انظر صالح خرفي ، معهد البحوث و الدراسات العربية 1969 القاهرة .

2 -عمر بن قينة : المرجع السابق ، ص 149.

3 – عمر بن قينة : المرجع السابق ، ص 125.

4 -المرجع نفسه ، ص 36.

على معقولة و منقولة فتمكن من أصوله و فصوله ، و كـــان لعلـــوم عصـــره جامعـــا ، ولرايتها رافعا مثل أخويه المغربيين الأقصى و الأدنى ،فظهر في الأقاليم بدوره ، واشتهر في التاريخ قدره إضافة إلى رجل من أهم رجال الفكر والأدب محمد بن أبي شنب (1869 – 1929) من أهم الآثار التي تركها : نزهة الأنظار في فضل التاريخ و الأخبار و كان لهذه الشخصية الفضل العظيم في توجيه مسار الحركة الأدبية الوجهة السليمة نظرا لنشاطه داخل الوطن و خارجه[1].

و هكذا كان الأدب الجزائري الملتزم بقضايا الجزائر و الأمة العربية و الإسلامية صورة عن نفسية الشعب الجزائري الرافض للاستعمار و المتمسك بعروبته وإسلامه، والمتشـــبث بالصلة التي تجمعه بإخوانه في الوطن العربي الكبير.

و لذلك جاء أدبا قويا في مضمونه الثوري ضعيفا في مستواه الفني إلا عند بعض الكتـــاب و الشعراء ممن حققوا مستوى إبداعيا رفعهم إلى مصاف الشعراء العرب الممتازين وفعلا نشطت الحركة الأدبية في مناخ سياسي كان متوترا ، فظهرت طائفة من الأدبـــاء الـــذين حملوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن هذا الوطن و عن أبنائه ، و التأريخ لثورة أقل ما يقال عنها أنها ثورة المليون و نصف المليون شهيد ، وعلى رأس هؤلاء الشاعر المكافح شاعر الثورة و قائل العبرة مفدي زكريا ، و قد التزم هذا الأخير بالمضـــامين الوطنيـــة وكـــان مجاله الثورة و استنهاض الهمم متمسكا بعروبته و إسلامه الذي حاول الاستعمار جاهـــدا طمس معالمه في قلوب أبناء الجزائر الحبيبة ، لكن هيهات أن ينال ما يصبوا إليه فنقول :

---

1 – عمر بن قينة : المرجع السابق ، ص 45.

شعب الجزائر مسلم و إلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب [1]

2-المناخ الاجتمـــاعي :

إن تجسيم احتلال الجزائر بأنه (مأساة اجتماعية) إلى جانب كونـــه(غزوة صـــليبية) ليس فيه مبالغة فهي الوجه الأكثر دلالة على الاستعمار ، و قد استطاع الجزائـــري بـــان يواجه العنف بالعنف ، و لكن الجرح الأنكر ، و الداء العياء ، هو هذه المأســـاة الطويلـــة النفس ، المرعبة الملامح ، التي فجرها الاحتلال في الجزائر طيلة وجوده بها.

و المأساة أوسع من أن تعد أيامها طيلة قرن و ربع.

و تستعرض فصولها المتلاحقة ، إنما تلتمس منها أبعادها في الحيـــاة الفكريـــة و الأدبيـــة وآثارها في إخصاب أو عقم هذه الحياة.

لقد كان للمواجهة العنيفة الدائمة بين المواطن و الدخيل في صورة ثورات لا يهـــدأ لهـــا نفس، أبعاد اجتماعية قاتمة ، تنبع من الفشل الذي تمنى به هذه الثورات أمام القوة الغاشمة ، وما ينتج عن هذا الفشل من ضراوة المطاردة ، و تلون المصير بالمواطن بـــين تشـــرد وراء الحدود و انطوائية وراء القضبان ، فتنتهي الثورة و لا تكاد تخف أصـــداؤها حتـــى تفجر الحفيظة ثورة أخرى.و انتهت المأساة بالشعب الجزائري في بداية هذا القـــرن إلـــى شقوق وتصدعات قال عنها أحد الكتاب الجزائريين :<< لقد سلط على الأمة عوامل ثلاثة ، لو تسلط عامل واحد منها على أمة كبيرة لزعزع ركنها وهدّ بناءها ، ألا و هـــي الجهـــل

---

1 – قال هذه القصيدة سنة 1930 ردا على الاحتفالات التي قام بها المستعمر و قوله بأن الجزائر فقدت تاريخها وهويتها و سياسة الإدماج.

والفقر و الفرقة فالجهل أفقدها شعورها بوجودها وكيف تذب عنه ، و الفقر أقعدها عن العمل و شل أعضاءها عن الحركة و الافتراق أذاب قوتها ، و ذهب بريحها فبقيت والحالة هذه عرضة للتلف و الاضمحلال والهلاك . و هي نتيجة طبيعية لتلك الحالة المحزنة التي جر إليها الظلم والاستبداد.>> [1]

على هذا النحو كانت صورة الحياة الاجتماعية في الجزائر آنذاك ، و بالرغم من ذلك فإن الجزائريين كانوا يعيشون حياة سلام و هدوء ، و لكن عندما اجتاحت القوات الفرنسية أرض الجزائر أحدثت تغيرات جديدة على الساحة الاجتماعية أهمها:

أ- الهجـــرة :

إن الحكم الفرنسي في الجزائر المتسم بالقساوة و الاضطهاد للشعب الجزائري كان سببا رئيسا في الهجرة التي بدأت منذ بداية الاحتلال ، حيث كان الجزائريون يفرون من منطقة إلى أخرى داخل الوطن طلبا للأمن إلا أن الهجرات الداخلية لم تكن حلا للمعضلة القائمة مما اضطرهم إلى الهجرة خارج الوطن بالرغم ما ترتب عليها من مساوئ لحقت بهم ، إذ تشتتت كثيرا من الأسر الجزائرية و تفرقت داخل الوطن و خارجه.

و هناك أسباب مختلفة للهجرات التي أصابت المجتمع الجزائري منها :

انعدام الحرية ، و بخاصة بعد صدور قانون (الأنديجينا) الذي اتبع سياسة خنق الحريات مع تغييب وسائل التعبير ، بحيث أصبحت وضعية المسلم الجزائري قانونا لم تبن على المعقول و المنطق <<فالمسلم الجزائري من حيث المنطق و المعقول هو مسلم جزائري

1- من مقال أبي اليقظان تحت عنوان (شعور الأمة نائم فماذا ينبهه ؟) جريدة (وادي ميزاب) عدد 29/42 محرم 1346-29 جويلية 1927.

وكفى ، و من حيث القانون الدولي هو فرنسي ، و من حيث المعاملات الداخلية الفرنسية هو (رعية فرنسية) يقوم بالواجبات و لا يتمتع بالحقوق الفرنسية إلا إذا رضي بالخروج عن أحكام الشريعة الإسلامية في كل ما يتعلق بحالته الشخصية و دخل تحت أحكام القانون المدني الفرنسي>>[1]

فهذه الوضعية الصحية التي يحياها المواطن الجزائري أثرت فيه كثيرا و نغصت عليه حياته مما دفعه إلى عدم البقاء في وطنه.

و من الأسباب الدافعة إلى الهجرة أيضا الأحوال الاقتصادية ، ذلك أن الجزائريين كانوا يشكون من ثقل الضرائب المسلطة عليهم من قبل الإدارة الاستعمارية و هذا منذ سنوات طويلة ، إضافة إلى ذلك فقدانهم لأراضيهم التي اغتصبت منهم بالقوة من طرف المستوطنين و حرموا منها ، و كذا سوء التوزيع للميزانية غير المتكافئ مما نتج عنه السخط المتواصل من قبل الأهالي ، لكن لم يؤثر في المستعمرين و لم يعترفوا لهم بحقوقهم و لم يستجيبوا لمطالبهم مما كرس شقاء و تعاسة المواطن الجزائري.

و هناك سبب آخر لا يقل أهمية عن الأسباب الأخرى دفع الجزائريين إلى الهجرة خارج الوطن يتمثل في تسلط الإدارة الفرنسية على المؤسسات الدينية ، و مصادرة أملاكها وبسط نفوذها الكامل على جميع الشؤون الإسلامية و هذا اثر سلبا في حياتهم و أصبحوا يشعرون بعدم الأمن حين حرموا من حق التصرف في شؤون دنياهم و بخاصة ما يتعلق

1- أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، سنة 1984 ص 350.

بالشؤون الدينية ، علما بأنه لا يخف على عاقل ما لها من دور فاعل في حيـــاتهم ، إذْ لا يمكن أن يعيشوا بدون دين مما أثار غضبهم واضطروا إلى الهجرة بحثًا عن مخرج لهم.

و من بين الأسباب التي قادت الجزائريين إلى الهجرة التجنيد الإجباري الذي طـــال كـــل المواطنين مما سبب اضطرابًا عامًا في الوسط الاجتماعي ، و هذا أدى إلى الفوضى فـــي حياة الجزائريين فباعوا أملاكهم و غادروا أرض الوطن.

ب- وضعية العمـــال :

لا ريب أن الباعث الحقيقي و الأول في رأي القائمين على الإدارة الاستعمارية منذ احتلال الجزائر هو استبعاد أهلها و الاستحواذ على خيراتها ، مما نتج عنه تحول الأمـــة الجزائرية إلى أمة عمال ، لهذا تجد الفقر المدقع قـــد ضـــرب أطنابـــه بأنحـــاء الـــبلاد وأصبحت<< الأغلبية الساحقة للسواد الأهلي تتركب من دهماء الفلاحين و الرعاة بين أبناء القرى الجبلية و رحل ضعاف أو متوسطي الحال يغلب عندهم عنصر الزرع على عنصر الرعي >>[1]

فأمام هذه الأزمات التي ألمت بالشعب الجزائري و بخاصة بعد انتزاع أملاكه و الاستيلاء عليها عنوة تحول كثير منهم إلى عمال في مختلف الميادين يتقاضون أجـــورًا ضـــعيفة لا تلبي حاجاتهم.

فالبؤس في الجزائر قد عم أغلبية سكانها فلم يستطيعوا صبرا على تلك الحالة التي ساهمت في تدهور الوضع الاجتماعي و تدني مستوى معيشة الأفراد مما اضطرهم إلـــى مغـــادرة

1- أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 378 .

أرض الوطن قصد العمل من أجل أن يعيشوا و خاصة بأرض فرنسا.فاستقبلتهم معالمها يشتغلون فيها أشغالا عادية خالية من الاختصاص مقابل أجور تقل بكثير عن أجور الفرنسيين و الأجانب و لكنها في المقابل أكثر مما يتقاضاه إخوانهم العمال بالجزائر.

ج-وضعية المرأة الجزائرية :

المرأة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي كانت تحظى بوضعية طيبة ، لكن سرعان ما تحولت تلك الوضعية حين تم الغزو الفرنسي للبلاد الذي أحدث انقلابا شاملا في حياة المجتمع الجزائري برمته.

فبلغت المرأة الجزائرية آنذاك ما بلغه الرجل من درجة كبيرة من التخلف فهي <<تعاني من الجهل الجاثم على العقول و الجمود الخانق للطموح ، تعيش في حالة من التخلف والكبت و الحرمان المفروض عليها>>[1] و ما زاد من تراجعها عن مكانتها و تخلفها عن الدور المنوط بها أن أبناء جلدتها- و لأسباب ذاتية وموضوعية – لم يكونوا في مستوى تحمل المسؤولية إزاءها ، حيث وجدنا الكثير منهم قد خنق حريتها و سلب إرادتها ومنعها من التعليم ، بل حرمها من كل شيء مما جعلها <<فريسة سهلة للخرافات و البدع والسحر و الشعوذة ، و أصبح نشاطها الاجتماعي يدور حول نقل الأحجبة ، و حرق البخور ، وزيارة الأولياء>> [2].إلا أن هذه الحالة التي تعيشها المرأة الجزائرية لم تمنعها من وقفات رائدة تبرز فيها في بعض فترات التاريخ إضافة إلى ذلك أنها كانت <<تمتاز بخلال كريمة

1- أنيسة بركات درار : نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، سنة 1985 ، ص 7.

2- أحمد الخطيب : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 م ، ص 85.

و سجايا طيبة ، فهي محافظة أتم المحافظة على التقاليد القديمة و العادات التي ورثتها عن الأسلاف ، وهي مسلمة متينة الإيمان على قاعدة (إيمان العجائز) ثم هي زوجة أمينة صبورة وفية ، تشاطر زوجها آلام الحياة دون جزع>>[1]

صادفت الصحف العربية الجزائرية في الفكر و اللسان و القلم هذه الذرة في المأساة ، فهزت الشعور القومي حتى طغت على الصحافة في هذا العهد موجة من الاتسامات القاتمة ، و الانعكاسات السوداء لهذه الحالة، و كادت تصبح صحافة اجتماعية بالدرجة الأولى.

كما كان للكلمة الفنية صوت مسموع في هذا المضمار ، و أصداء متجاوبة في تجسيم أبعاد المأساة ، فالنص الأدبي القاتم لم يتمخض إلا عنها ، و لم يترعرع إلا في أحضانها. فالأديب المثقف كان الضحية الأولى للمأساة ، فهو العدو اللذوذ للمستعمر ، يفسد عليه مشاريعه و يفضح نواياه و الغايات التي يتطلع إليها.

فإذا كانت المأساة تفتيت للمقومات الذاتية فالثقافة العربية تجميع لهذه المقومات من جديد ، فلا غرابة أن يلقى المثقف و حامل الكلمة الهادفة من المستعمر ضراوة لا ترحم . و قد طغت على الشعراء موجة التشاؤم و التذمر و الشكوى ، حتى أنك لتعجب و أنت تتصفح تراجمهم بأقلامهم في (شعراء الجزائر) لهذه الغلالة السوداء ، المنسدلة على أعينهم .يقول (السعيد الزاهري) في ترجمة حياته : << أرى الجزائر في أنياب بؤس يمضغها مضغا و أراها في فقر يأكلها أكلا لمًّا ، و أراها بعد ذلك تتخبط في جهالة عمياء ، وتعمه

1- أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 362.

في ضلال مبين ، فلا أستطيع مع ذلك صبرا ، أراها كذلك فيذوب لها فؤادي رقة و حزنا و تذهب نفسي عليها حسرات ، إنه ليكاد يقضي علي الكمد و يقتلني الأسى ، إذا أنا تذكرت ما كان لوطني من العزة والشرف و ما كان له من السيادة على الفرنجة ، ثم أراه صار بعد ذلك كله إلى الذلة و الهوان>> .

ثم يلتفت (الزاهري) إلى عنصر الإلهام في المأساة فيقول : << إن الشعر هو الشعور وأبناء الجزائر يشعرون جميعا بهذه الآلام فما بالهم لا يكونون شعراء أجمعين! أشعر بمجد الجزائر القديم ، و اشعر بعد ذلك بما صارت إليه هذه الأمة من البؤس الأليم فينفطر قلبي انفطارا ، و يغلي قلبي هموما و أحزانا فأتنفس الصعداء ، أروح ما بين جوانحي ثم ما زالت كذلك أنفت من صدر موتور ، و قلب محزون ، فتات أرسلت إليك ما حضر عندي منها ، لتختار منها لكتاب (شعراء الجزائر)>>[1]

و من الصدف العجيبة أن أبرز شعراء هذه الفترة قد التقوا في كتاب (شعراء الجزائر) على عتبة العشرين من أعمارهم .و لكن ليس من الصدفة في شيء أن يتلاقوا في نظرتهم المتشائمة للحياة .فالشباب شيخوخة في معيار المأساة ، و هم بعد ذلك مهما ذهبوا بالنظرة بعيدا ، لا يتراءى لهم في الأفق إلا غمامات سوداء يقول (الأمين العمودي) أحد شعراء الطليعة:<< أما حياتي فحياة كل مسلم جزائري ، حياة بلا غاية و لا أمل ،حياة من لا يأسف على أمسه و لا يغتبط بيومه و لا يثق في غده>>[2]

---

1 – محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر ، المطبعة التونسية 1344 –1926 ، الجزء الأول ، ص 62 –93.

2– محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر ، مطبعة النهضة تونس 1927/1346 ، الجزء الثاني ، ص 20.

و إذا ولدت المأساة هذه النظرة السوداوية القاتمة عند الشعراء ، فمن العدل و الإنصـــاف أن نقول أنها كانت سوداوية خانقة ، فلم تصل بها المأساة لتجعلها قاتلة فسرعان ما تولدت منها ردود فعل إيجابية تصاعدت مع تباشير الإصلاح و استطاعت مع سرور الأيـــام أن تفجر من السواد إشراقا و من الضياع إقداما و من الاستكانة تطاولا على الأحداث.

و إذا أردنا عددا أكثر من ذلك ، قلنا إن التمزق الذي سببته المأساة يعد إيجابيـــا إذا قـــيس بفترة الركود و التخدير الحسي و الروحي الذي لم يكن يعي ما حوله.

3-المنـــاخ السيـــاسي :

لقد كانت حادثة المروحة الذريعة التي برزت بها فرنسا عملية غزو الجزائر ، فقد ادعى قنصل فرنسا أن الداي حسين ضربه بالمروحة نتيجة لاشتداد الخصام بينهما نظرا لعدم التزام فرنسا بدفع ديونها للخزينة الجزائرية التي قدمت لها على شكل قروض مالية ومواد غذائية بصفة خاصة خلال المجاعة التي اجتاحت فرنسا بعد ثورة 1789م والتي قدرت بـــ:20مليون فرنك ذهبي في ذلك الوقت .

فقرر الملك الفرنسي شارل العاشر إرسال أسطولا بحريا مبررا عملية الغزو بالثأر لشرف فرنسا والانتقام من الداي حسين .

وقد تم ذلك في 05جويلية 1830بعد استسلام الداي حسين ، فعاث الفرنسيون في جزائرنا الحبيبة دمارا ، فراحوا يقتلون ويشردون ويخربون المساجد بدليل ما اعترفت به لجنة التحقيق البرلمانية قائلة :<<...لقد كنا أكثر وحشية من السكان الذين جئنا لتمدينهم >>.[1]

ولم تقف عند هذا الحد فحسب ، بل راحت تشجع الفرنسيين واليهود على الهجرة إلى الجزائر ، حيث وصل عدد الفرنسيين في مطلع القرن العشرين أكثر من 120000نسمة في حين وصل عدد اليهود إلى 140000نسمة.[2]

ولقد تأرجح العامل السياسي في بداية القرن بين حبلين ، سياسي ، وعسكري ، وكان في السابق مشدودا فقط إلى حبل عسكري موتور. وهذا التأرجح هو الذي ولد الذبذبات المختلفة في كل المجالات ، فالجانب السياسي الذي أعطى لنفسه مسحة من التغاضي وأسلوب التودد ولو بالوعود الكاذبة ، أعطى الفرصة لانتعاش الأمل وتوثب بعض الحركات ثقافيا وسياسيا ، برهن فيها المواطن على أنه أذكى من المستعمر في استغلال التغاضي .ولم تكن سياسة التودد تنتهج لوجه الله ، ولكن لحاجة في نفس يعقوب ، فغالبا ما تكون مقدمة لضريبة باهظة كتلك الوعود المهدئة التي صحبت موجة التجنيد الإجباري [3]، للحرب العالمية الأولى ، وذلك الإغضاء عن تسرب بعض المقالات الإصلاحية في

---

1 –يحيى الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا ، دراسة فنية و تحليلية دار البعث قسنطينة، ط1، سنة 1987 ص 16.

2–عبد المجيد عمراني : النخبة الفرنسية المثقفة و الثورة الجزائرية (1954 م 1962 م) طبعة الشهاب 1995م ، ص 46.

3– اشتهر بهذه الوعود (جورج كليمانصو) الذي قال ذات يوم يخاطب الكتيبة الإفريقية في الجيش الفرنسي و هي في طريقها إلى الميدان : << ثقوا بأن هذه الراية عندما تعود من الحرب مخرقة برصاص النصر ، سيكون لكم نصيب في هذا النصر >>.

المشرق [1]، إلى الصحافة الجزائرية ، جلبا لعواطف الجزائريين بإظهار فرنسا في مظهر (حامية الإسلام) وصديقة الدول العلية ، أو الإذن بالتعاطف المادي والأدبي مع الليبيين والأتراك في الحرب الطرابلسية تأكيدا لذلك المظهر [2] .وقد يكون إرخاء الزمام شعورا خادعا بالطمأنينة على استسلام الوطن لحكم الأجنبي.

ومهما تكن البواعث ، فإن سياسة التودد والوعود المعسولة ، والتغاضي قد فجرت بعض المكامن ، ودعمت بعض المواقف ، فنشطت الصحافة ، وتوطدت علاقتها بأحداث المشرق الأدنى في تلك الفترة الحاسمة ، وانتعش الطموح إلى نيل بعض الحقوق ، وترددت الوفود والمطالب الجزائرية على باريس ، والتأمت بعض التجمعات الوطنية بل تطورت إلى التنظيم الحزبي السياسي .

والجانب المقابل لهذه السياسة ، جانب الحيطة والحذر،واسترجاع اليد اليسرى ما أعطت اليد اليمنى ، لم يكن أقل إثراء للتطلع والتوثب، فإنه ما زاده إلا عنفا ورسوخا ، وعندما بلغ هذا الجانب ذروته في تفجير بعض الانتفاضات ، وقمعها [3]، أو تفجير بعض الهجرات إلى العالم العربي الإسلامي فإن تلك الانتفاضات لم تكن إلا وفاء لمسيرة الحركة

1- يقول سعد الدين بن شنب : "وكانت الحكومة الفرنسية في ذلك الزمن (1905) تعلن العلائق الودية التي تربطها بالباب العالي ، حتى يظن الجزائريون أنها حبيبة الإسلام".

2 -يذكر أبو القاسم سعد الله :" إن الحكومة رخصت للجزائريين بتنظيم لجان الهلال الأحمر التركي ، و جمع التبرعات للجرحى الليبيين".

انظر الحركة الوطنية الجزائرية ، ص 138 ، دار الآداب بيروت 1969.

3 -من هذه الانتفاضات (ثورة عين التركي) في سن 1901 و ثورة عين بسام في 1906.انظر الحركة الوطنية الجزائرية.

الوطنية ، وهذه الهجرات لم تكن هي الأخرى إلا سفارة جزائرية لرواد الإصلاح ، يعودون بعدها أقوى عزيمة ، وأمضى سلاحا.

وقد وجد الأدباء في العنصر السياسي ، مجالا للقول والكتابة ، فتأرجح أدبهم بين سياسة التودد واللوم والعتاب لـــ(فرنسا الأم) ، وبين خيبة الظن والشعور باليأس .وعندما نقف على عتبة الثلاثينات ، تطالعنا أحداث بارزة كان لها الأثر المباشر في تعميق البدايات التي شهدتها الفترة السابقة وتصعيد مسيرتها .

يطلعنا الاحتفال المئوي باحتلال الجزائر [1] ، وما صاحب هذا الاحتفال من مظاهر استعراض العضلات ، وبعث الذكريات الأليمة ، وإحياء الأحقاد القديمة ، ولم يقتصر الاحتفال على ذكرى دخول الجزائر العاصمة ، وإنما امتد إلى الاحتفال باحتلال المدن الرئيسية وإذا عرفنا أن هذه المدن لم تحتل في وقت واحد ، فإننا نستطيع أن نقول إن الثلاثينات كانت استعراضا مؤلما لمأساة الاحتلال من جديد .

ويأتي بعد ذكرى الاحتلال ، كرد فعل ، تأسيس "جمعية العلماء"سنة 1931[2] وهذا التوقيت في التأسيس لم يكن محض صدفة ، إذ أن المحاولات الأولى لإخراج هذه الجمعية إلى حيز الوجود ترجع إلى سنة 1924[3] ولكن الذكرى المبيتة على الشخصية الوطنية ،

---

1 –استغرق الاستعداد لهذا الاحتفال ستة شهور ، و خصصت له اعتمادات مالية ضخمة ، و لجنة خاصة بتأليف الكتب التي تمجد الاحتلال.

2– تأسست جمعية العلماء في (نادي الترقي) بالعاصمة ، و في مؤتمر قومي استمر أسبوعا و انتخب (عبد الحميد ابن باديس) أول رئيس لها و كان ذلك في 17 ذي الحجة 1349 – 5 ماي 1931.

3– يذكر الإبراهيمي أن المحاولة الأولى كانت سنة 1924 عندما زار ابن باديس في مدينة سطيف و فاتحه في تأسيس جمعية إصلاحية باسم (الإخاء العلمي) و طلب منه وضع قانونها الأساسي.

هي التي فرضت مجابهة تؤكد بقاء هذه الشخصية فجاءت الحركة التي تحمل شعار العروبة والإسلام .

ووراء الحركة تقف صحافة وطنية ، اتضحت وجهتها ، وتميزت مدرستها[1] ، وطرحت جانبا شعارات التقية والذريعة .

وفي الوقت الذي كانت فيه السلطات الاستعمارية تحتفل بمرور مائة سنة على ذكريات دخول المدن الجزائرية ، كانت هذه الصحافة تنقل صور البطولة لأبناء تلك المدن والتي سجلها التاريخ الفرنسي نفسه ، وكانت الصحافة الوطنية في محيط جمعية العلماء وخارجه هدفا للمراقبة الصارمة ، وقد لعبت في هذه الفترة دورها الرائد في فتح نوافذ على الماضي وإذكاء الطموح إلى المستقبل ، ومناقشة قضايا الساعة بهدي من المصلحة الوطنية العليا .

والفترة لم تكن مواجهة مع المستعمر فقط ، ولكن مع عملائه .وأشدهم وقعا على الإصلاح الديني أدعياء الدين ، وقد تميزت هذه الفترة بتتبعهم وفضحهم على رؤوس المنابر وأعمدة الصحف وكان للقلم في هذه المواجهة الشوط الواسع والنفس الطويل.

وإذا اتجهنا إلى المجال السياسي في الثلاثينات ، فإننا نشهد بروز أهم الأحزاب السياسية[2] ومعترك وجهات النظر المختلفة في الحل الذي تتطلبه القضية الوطنية وقد استطاع هذا الصراع أن يجد له نوعا من التقارب السلمي في (المؤتمر الإسلامي العام) سنة 1936،

---

1 – كانت الشهاب المجلة الشهرية و البصائر الجريدة الأسبوعية ، أبرز صحف جمعية العلماء في هذه الفترة ، و صدرت في جانبها (الشريعة و الصراط و السنة) و لكن الاستعمار لم يمهلها.

2 –صدر لجمعية علماء السنة المناهضة (جمعية العلماء) و التي يتزعمها المولود الحافظي جريدة الإخلاص.

الذي تمخض عن موجة من التفاؤل بوصول الائتلاف اليساري (الشيوعيين والاشتراكيين) إلى الحكم في فرنسا ، وما غذى هذا التفاؤل مشروعات طرحتها شخصيات اشتراكية فرنسية بارزة كانت مجالا للجدل والأخذ والرد طيلة الثلاثينات[1].

وقد كان المؤتمر الإسلامي أشبه بتصفية أخرى ومراجعة شاملة لسياسة حسن الظن ، وعندما تبرهن السياسة على فشلها مرة أخرى أمام أكثر العناصر ادعاء للاشتراكية في فرنسا ستتحول مجرى الأحداث كلها إلى وجهة جديدة تبرز بعد الحرب الثانية .

---

1 –إشارة إلى مشروع فيوليت.

الفصل الأول

نبذة عن حياة الشاعر "مفدي زكريا"

1-نسبه

2- أسرته

3- عوامل نبوغه

4- شخصيته

5-شاعريته

6-نشاطه السياسي

7-وفاته

8-إنتاجه الأدبي .

حياته :

1-نسبه :

اسمه الكامل : هو مفدي زكريا بن سليمان الشيخ صالح ولد في 12 جمادى الأولى 1326هـ الموافق لـ 12 جوان سنة 1908 بقرية بني يزقن في واحة بني ميزاب جنوب الجزائر ، وكان جده الشيخ صالح بن يحيى تربطه بالسلطة العثمانية معاهدة حماية وظلت سارية المفعول طِوال عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر حتى سنة 1880.[1]

2-أسرته :

تنحدر أسرته من بني رستم الذين أسسوا مدينة تيهرت في القرن الثاني من الهجرة والتي تعرف اليوم بمدينة تيارت غرب الجزائر ودولة بني رستم هي أول دولة جزائرية ذات سيادة كاملة غير مرتبطة بتبعية لا إلى الحفصيين ولا إلى بني زيان ، دامت قرابة قرنين وتحقق في عهدها لأول مرة في التاريخ توحيد المغرب العربي الكبير.[2].

3- عوامل نبوغه (ثقافته وأساتذته):

التحق مفدي زكريا بالكتاب كغيره من أبناء القرية ليحفظ القرآن ، ويتعلم ما تيسر له من علوم الشريعة الإسلامية ولما بلغ السابعة من عمره التحق بأبيه في مدينة عنابة شمال الجزائر حيث كان مركز تجارته وظل الفتى (مفدي زكريا) يتردد بينها وبين

---

1 -حواس بري : شعر مفدي زكريا دراسة و تقويم ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، عن جريدة الشعب الثقافي الجزائر بتاريخ 5 أوت 1972 ص 27.

2- المرجع نفسه ، ص 27 .

مسقط رأسه حتى أذن الله لبني ميزاب أن يلجوا أبواب الحياة الجديدة بأساليب النهضة الثقافية وكان مفدي من بين أفراد البعثة العلمية تحت رئاسة أساتذة فضلاء يعدون من الكبار أمثال : الشيخ محمد التميمي ، أبو اليقظان ، والشيخ إبراهيم بن الحاج عيسى صالح بن يحي وإبراهيم أطفيش....وعلى يد هؤلاء العلماء وغيرهم تلقى مفدي زكريا دروسا دينية وأخرى في الوطنية .

التحق مفدي زكريا بمدرسة السلام القرآنية ، ومكث فيها سنتين وكانت هي المدرسة التي تلقى فيها مبادئ العربية والعلوم الكونية على يد ثلاثة من الأساتذة : الشاذلي الموالي وعبد العزيز الباروني وصالح بن الأحمر حيث تلقى مفدي على يد هذا الأخير مبادئ اللغة الفرنسية ومن هذه المدرسة " السلام القرآنية " تحصل مفدي على الشهادة الابتدائية في العربية .

ثم التحق بالمدرسة الخلدونية بتونس وفيها درس الحساب والهندسة و الجبر والجغرافيا والتاريخ .....ثم بجامعة الزيتونة وفيها سنحت له الفرصة أن يطلع على كتب ذات أهمية بالغة في النحو والبلاغة والأصول ومن بينها كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة والتنقيح للفرابي وفقه اللغة للثعالبي .

وكان مفدي يحضر الندوات التي كان يديرها الأديب العربي الكبادي في الأدب في مدرسة " الترجمة للغة العربية العليا" ثم التحق مفدي بالمدرسة الخلدونية مرة ثانية ونال الشهادة الثانوية منها [1] .

---

1 –محمد الهادي السنوسي : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، الشركة التونسية للنشر 1962 ص 151.

" ومما يسجل للعلماء –آن ذاك–أنهم لم يكتفوا بتلقين النشئ دروسا في اللغة وآدابها والشريعة ومقاصدها فحسب ، إنما كانوا حريصين على تكوينهم سياسيا ودينيا وثقافيا وقد كان لتلك التربية انعكاسات على مفدي وكان بذلك فهو الشاب الوطني والرجل الثوري والشاعر الصارخ في وجه أعداء الوطن والعروبة والإسلام بالكلمة الثائرة والطلقة الشجاعة" [1] .

ويضاف إلى جهد أساتذته نشأته في حضن عمه الشيخ صالح بن يحيى واحد من الأقطاب الثلاثة الذين أسسوا الحزب الدستوري التونسي وغدوا الحرب الطرابلسية بما كانوا يجمعونه من أموال تونس والجزائر خاصة .

كما فتح مفدي زكريا عينه على شخصية الزعيم الوطني الكبير " عبد العزيز الثعالبي" الذي كان يتردد على بيتهم باستمرار بحكم الصداقة التي كانت تربطهم بالشيخ صالح عم مفدي –الذي كان يرى في شخصه نموذجا للغيرة الإسلامية والوطنية والدين على يد رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، يعلمون النشئ بأفعالهم قبل دروسهم من أمثالهم : أبي إسحاق، إبراهيم أطفيش ، أبي اليقظان ...

وفي هذه البعثة التي كان جوها حافلا بكل البرامج التي تعمل على تعلم على أن تجعل من النشئ حامي الوطنية ، و الرجل المسلم و المسؤول القادر على تدليل المصاعب التي تقف حائلا دون تحقيق أمانيه و تطلعاته أولها الاستعمار الفرنسي << فلا عجب إذا أن نجد باعث النهضة والثورة الجزائرية عبد الحميد بن باديس يهتز لهذا الجو المفعم

1– حواس بري : المرجع السابق ، ص 28.

بالنشاط الذي يعزز أواصر القوة في شباب منهم شاعرنا الذي أصبح فيما بعد شاعر الثورة الجزائرية وشاعر المغرب العربي الكبير >> [1]

4- شخصيته :

إن شخصية مفدي زكريا كما يحكي عنه أصدقاؤه المقربون، تمتاز بالتفتح والبساطة وعدم الانطواء و التعقد فقد كان قمة في الأخلاق ، سمح الطبع لطيف المعشر ، كثير الميل إلى التنكيت و الدعابة ، دائم التبسم لا تفارق البسمة محياه سريع الانسجام مع الآخرين بحيث يخيل للذي يتعرف عليه أول مرة و يحادثه في أول لقاء أنه يعرفه منذ أمد طويل بعيد في علاقاته مع الآخرين عن التصنع والتكلف كريم على حد التصور يمد يد المساعدة لأصدقائه دون تحفظ .

<< ومن جهة أخرى كان معتدا بشخصيته من غير صلف ولا كبرياء يتشبث بآرائه ومواقفه، يحب دائما أن يكون سيد مواقفه واختياراته رافضا التبعية ، شديد الصراحة والجهر بآرائه التي يؤمن بها ، مما عرضه لكثير من المشكلات والمضايقات >>[2]ولقد كانت تراود مفدي زكريا أمنيات كثيرة في حياته :

أولا : أن يجمع شعره الذي قال منذ بداية مرحلته الشعرية في العشرينيات إلى سنة 1954لأنه موزع بين جرائد ومجلات مختلفة ، وقد صعب تحقيق هذا الشاعر نوعا ما نظرا إلى أنه يتصف بعادة غير محمودة في هذا المجال وهي أنه لم يستعمل ، - أبدا - كراسا أو دفترا يدون فيه ما ينظم من شعر كما يفعل أغلب الشعراء ، بل كان يسجل

1- حواس بري : المرجع السابق ، ص 28.

2- يحيى الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا ، ص 49.

قصائده في أوراق مستقلة سهلة الضياع ، ثم أن أكثر قصائده لا يملك نسخا عنها بينما يملكها أصدقاؤه والمهتمون بشعره .

ثانيا : أن يكتب مذكرات حياته خاصة السياسية والنضالية منها منذ التحاقه بحزب نجم شمال إفريقيا في الثلاثينات ، وهو يعتقد أنها ستكون مهمة وثرية ومثيرة أيضا ، لأنه عاش جميع أحداث الحركة الوطنية منذ نشأتها وكان من أقطابها واحتك بجميع الشخصيات التي كان لها دورها في الحركة الوطنية بصفة عامة والثورة المسلحة بصورة خاصة ، وكان يقول : " إن أمثال العربي بن مهيدي وعبان رمضان من أصدقائي الحميمين ، بل من تلاميذي في حزب الشعب وأعرف عنهم الكثير "[1] .

ومن المؤسف أن مفدي زكريا لم يكتب له تحقيق أية أمنية من الأمنيتين فإذا كان جمع شعره بمستطاع الآخرين يقوموا به حتى بعد موته فإن كتابه المذكرات تعتبر خسارة فادحة لا يمكن تعويضها أبدا لأن أمثاله الذين جمعوا بين النضال الحقيقي الفعلي وبين المستوى الأدبي الذي يمكنهم من الكتابة هم قليلون جدا والمنية تخطفهم واحدا تلو الآخر"[2].

" لقد تميز مفدي زكريا عن غيره من الشعراء بحبه للانتصار في كل المواقف فقد كان طموحا لا يكتفي بالقليل من المعرفة ظل طوال حياته لا يخضع للذل ولا يحب الدنيء من الأشياء ، ورغم شهرته الفائقة ومظهره الأنيق فهو متواضع لطيف حسن المعاشرة .

1- المرجع السابق ، ص 49.

2 -يحيى الشيخ صالح : المرجع السابق ، ص 50.

وظاهرة التحدي من المميزات التي عرف بها مفدي، وكان شعاره كما يحكي عنه زميله الأستاذ " البشير أهانو" قول أبي فراس(لنا الصدر دون العالمين) كان رجلاً متفق البنان ينفق على من جمعته بهم الجلسات وعلى من عضهم الدهر بنابه"[1]

كان يحب المناظرات مع الفقهاء وقد كثر الجدل بينه وبين الشيخ إبراهيم بيوض رحمة الله عليه وعرف مفدي بتنزهه وترفعه عن السخافات والمناظرات التي لا فائدة منها ولا طائل تحتها وكان لا يحبذ النقاشات العقيمة.

ومن ذلك أن جريدة المرصاد (1933-1931) كانت تنتقد مناهضي " جمعية العلماء" بمقابلات فارغة المضمون الفكري ، حافلة بالسب والشتم والطعن في الأشخاص ، ولما طلب صاحب الجريدة إلى مفدي أن يدلو بدلوه في هذه المعركة رد مفدي قائلا لمدير الجريدة :"أنصحك بإدارة وجهك نحو الأبحاث الحيوية الحقة.وأن تستخدم مواهبك الطيبة في النهوض بأمتك إلى تأسيس المعاهد العلمية والمدارس الحرة لتثقيف عقول أبنائها وإلى تأسيس النقابات التجارية وإلى إنشاء النوادي الأدبية لربط صلات التعارف بين عائلة الأدباء المشتتة هنا وهناك وإلى مقاومة الأخطاء الاجتماعية التي تهدد قوميتها وديننا الإسلامي المجيد ".[2]

وهنا تظهر شخصية مفدي الوطنية التي تعاف الهزل وتترفع عن القبيح من الأفعال والرديء من الأفكار التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

---

1 -حواس بري : المرجع السابق ، ص 50.

2- حواس بري : المرجع السابق ، ص 51.

ويسعى بدوره لينير الطريق إلى أبناء مجتمعه حتى لا تفوتهم فرصة الهجوم على العدو والرد عليه بالإتحاد والتضامن في كل ما يعود على أبناء الوطن بالخير والمنفعة .

أسهم مفدي زكريا في مشاريع تجارية كثيرة لم يكتب لها النجاح و الربح في أغلبها وهكذا كان يقاسي مقاساة شديدة في مشروعاته الاقتصادية و يعاني معاناة ما أدركه حرفه في الأدب " فلم يكتب له حسن الحظ فيحقق الثراء و الرخاء اللذين كان يحلم بهما ويرغب أن تكون حياته قائمه عليهما و الذي يبدو من خلال تطورات حياته و الأعمال التي تقلب فيها أنه لم يستطع الابتعاد عن ميدان السياسة و الثقافة و الشعر و الفن هذا ما كان من أهم الأسباب في عدم نجاحه في الميدان التجاري الذي امتهنه طوال حياته ، على أن انشغال مفدي بأعماله التجارية الخاصة لم يشغله قط عن المشاركة في الحياة السياسية التي عرفتها الجزائر و لا سيما بعد الاحتفالات الاستعمارية المئوية لاحتلال الجزائر "[1].

و عرف مفدي منذ مطلع شبابه ، الكدح في سبيل لقمة العيش و لقي في سبيلها الإرهاق و التعب ، و قد عمل أجيرا بسيطا في محلات تجارية متعددة في كل من قسنطينة والجزائر و عمل ممثلا متجولا لمحلات تجارية لبيع القماش و غيره وتنقل في العاصمة بين دكاكين عدة فكان له شارع لابير في بداية الثلاثينات محلا للنيابة التجارية و الإشهار التجاري لبيع العطور" ما لبث أن تحول إلى محل آخر لبيع الحليب و مشتقاته ثم فتح في

1- محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة طبعة ثانية مزيدة و منقحة ، نشر جمعية التراث العطف ، غرداية ص 12.

الأربعينات محلا لبيع القماش سماه " دار السلام " في نهج بوتان سابقا انتقل بعده إلى محل آخر في نهج بلوندون " [1].

5- شاعريته :

برز مفدي زكريا إلى الحياة الأدبية ضمن تلك الثلة من الشعراء التي ضمها المؤلف الأستاذ محمد الهادي السنوسي : " شعراء الجزائر في العصر الحديث ".

و قد كانت هناك عوامل ساعدت الشاعر على الظهور إلى معترك الحياة الأدبية بالرغم من صغر سنه و من أهمها : تميز البعثة الميزابية عن غيرها من البعثات الجزائرية في تونس ، فقد حظيت بعلماء كانوا على أهبة لتكوين من عليه يعول في جميع مجالات الحياة السياسية و الاقتصادية و الثقافية .

في هذه البعثة التي شهد لها الشيخ عبد الحميد بن باديس بالصلاح و الأخلاق والابتكار في المنهج الذي انعكس تطبيقه على البعثة الميزابية و التي كان مفدي احد أبنائها حيث وجد المجال أمامه فسيحا و الفرصة متاحة فأدلى بدلوه في كل نشاط تقوم به الجمعية " ونذكر على سبيل المثال " مجلة الوفاق " التي خصصتها البعثة للناشئين ، يديرونها بأنفسهم و يجبرونها بأقلامهم " [2].

و هنا نجد لمفدي زكريا فضلا كبيرا على هذه المجلة لما كان يمدها به من جهده ووقته بوصفه رئيس تحريرها الذي يكتب صفحاتها بخط يده كما كان لهذه المجلة صنيع على

1- المرجع السابق ، ص 11.

2- حواس بري : المرجع السابق ، ص 31.

مفدي زكريا تجلى في إتاحتها الفرصة أمامه لان يكتب فيها ما خطر بباله وما أملاه عليه قلبه.

كما يضاف إلى الدور الذي قدمته البعثة الميزابية كان للبيئة التونسية التي عاش فيها مفدي، و فتح عينه فيها دورا كبيرا حيث الأندية الأدبية و الصحف التي فتحت أبوابها في وجه كل من كان له طموح و رغبة لأن يدخل في معترك الحياة السياسية و الفكرية والأدبية .

<< هذا عن الأسباب التي لعبت دورها في شاعرية مفدي ،أما عن الأسباب الخاصة فنعزوها إلى استعداد مفدي نفسه حيث كان صاحب شعور مرهف و إحساس رقيق ونفس طموحة إلى كل ما هو سام >> [1]

6- نشاطه السياسي :

أثناء تواجده بتونس و اختلاطه بالأوساط الطلابية هناك تطورت علاقته بأبي اليقظان وبالشاعر حمود رمضان حيث قال عن نفسه و عن صديقه " حمود رمضان":

<< أتذكر أننا تحالفنا أن نسرد تاريخ مصطفى كامل المصري في مدة خمسة عشر يوما ، فأتينا على قراءته باستغراق جميع أوقات النهار و زلفا من الليل >> [2] . وهناك عرف مفدي النشاط السياسي ، و بعد عودته إلى الجزائر أصبح عضوا نشيطا في جمعية طلبة مسلمي شمال إفريقيا المناهضة لسياسة الإدماج ، إلى جانب ميوله إلى حركة الإصلاح

1- حواس بري : المرجع السابق ، ص 32.

2- محمد ناصر : رمضان حمود حياته و آثاره ، الشركة الجزائرية للكتاب، 1983 ص 20.

التي تمثلها جمعية العلماء ، انخرط مفدي زكريا في حزب نجم شمال إفريقيا ثم حزب الشعب الجزائري وكتب تشيد الحزب الرسمي " فداء الجزائر يقول فيه :

فداء الجزائر روحي و مالي ألا في سبيل الحرية

فليحي حزب الاستقـــــلال و نجم شمال إفريقية

وليحي الشعب الغالـــــي مثال الفداء والوطنية

و لتحي الجزائر مثل الهلال و لتحي فيها العربية [1]

اعتقل من طرف السلطات الفرنسية في أوت 1937 م رفقة مصالي الحاج و أطلق سراحه سنة 1939 ليؤسس رفقة باقي المناضلين جريدة الشعب لسان حال حزب الشعب ، اعتقل عدة مرات في فيفري 1940 (6 أشهر) ثم بعد ذلك في 8 ماي 1945 (3 سنوات) ، و بعد خروجه من السجن انخرط في صفوف حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ، انضم إلى الثورة التحريرية في 1954 و عرف الاعتقال مجددا في أفريل 1956 ، سجن بسجن سركاجي حوالي ثلاث سنوات وبعد خروجه فر إلى المغرب ثم إلى تونس أين ساهم في تحرير جريدة المجاهد إلى غاية الاستقلال ، اشتهر مفدي زكريا بكتابته النشيد الرسمي الوطني " قسما " إلى جانب ديوان اللهب المقدس ، و إلياذة الجزائر.

أول قصيدة له ذات شأن هي " **الريفيين** " في جريدة " لسان الشعب " بتاريخ 06 مايو 1925 و جريدة الصواب التونسيتين ثم في الصحافة المصرية " اللواء " و " الأخبار " واكب الحركة الوطنية بشعره و نضاله على مستوى المغرب العربي فانخرط في صفوف

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس ، موفم للنشر و التوزيع الجزائري 2000 ص 104.

الشبيبة الدستورية ، في فترة دراسته بتونس ، فاعتقل لمدة نصف شهر ، كما شارك مشاركة فعالة في مؤتمرات حلبة شمال إفريقيا ،و على مستوى الحركة الوطنية الجزائرية مناضلا في حزب نجم شمال إفريقيا ، و قائدا من أبرز قادة حزب الشعب الجزائري فكان أن أودع السجن لمدة سنتين(1937م–1939) غداة اندلاع الثورة التحريرية الكبرى انخرط في أولى خلايا جبهة التحرير الوطني بالجزائر العاصمة ، وألقي القبض عليه وعلى زملائه المشكلين لهذه الخلية ، فأودعوا السجن بعد محاكمتهم فبقي فيه لمدة ثلاث سنوات من 19 أفريل 1956 إلى 1959 م.

بعد خروجه من السجن فر إلى المغرب و منه انتقل إلى تونس للعلاج على يد فرانس فانون ، مما لحقه في السجن من آثار التعذيب ، و بعد ذلك كان سفير القضية الجزائرية بشعره في الصحافة التونسية و المغربية ، كما كان سفيرها أيضا في المشرق لدى مشاركته في مهرجان الشعر العربي بدمشق سنة 1961 و بخاصة في السنوات الأخيرة من حياته و شارك مشاركة فعالة في مؤتمرات التعرف على الفكر الإسلامي في سنة 1965 كان ضد الانقلاب العسكري أو ما يسمى التصحيح الثوري الذي قام به هواري بومدين وزير الدفاع آنذاك ضد الرئيس أحمد بن بلة يوم 19 جوان 1965 أين استولى هواري على السلطة الجزائرية ، فطرد مفدي زكريا من الجزائر.

7– وفاته :

توفي يوم الأربعاء 2 رمضان 1397 هـ الموافق لـ: 17 أغسطس 1977 إثر سكتة قلبية بعد أن أدى فريضة الحج هو و زوجته ، و قد طلبت كل من الحكومتين

التونسية و المغربية أن تتولى دفن جثته في أرضها إلا أن الحكومة الجزائرية أبت ذلك ، حيث دفنت جثته في مسقط رأسه (بني يزقن بغرداية).

توفي "مفدي زكريا" و هو حامل لوسام الكفاءة الفكرية من الدرجة الأولى من ملك المغرب ووسام الاستقلال من الدرجة الثانية من رئيس الجمهورية ووسام الاستحقاق من الحبيب بورقيبة أيضا [1] .

هكذا رحل مفدي ، رحل بعد أن أغنى بلاده بأروع الأشعار.

8- إنتـــاجه الأدبـــي :

1- تحت ظلال الزيتون "ديوان شعر" صدرت الطبعة الأولى سنة 1965م .

2- اللهب المقدس "ديوان شعر" صدر في الجزائر سنة 1983 صدرت الطبعة الأولى سنة 1937 م .

3- من وحي الأطلس "ديوان شعر".

4- إلياذة الجزائر "ديوان شعر" و قد كانت الغاية من هذا العمل هي كتابة التاريخ الجزائري و إزالة ما علق به من شوائب و تزييفات ، و قد اشترك في وضع المقاطع التاريخية كل من مفدي زكريا الذي كان متواجدا بالمغرب ومولود قاسم نايت بلقاسم الذي كان في الجزائر إضافة إلى عثمان الكعاك المتواجد حينها بتونس و تتكون الإلياذة من ألف بيت و بيت تغنت بأمجاد الجزائر وحضارتها ومقاومتها لمختلف المتتاليين عليها و كانت أول مرة يلقي الإلياذة أو البعض منها

---

1 -حواس بري : المرجع السابق ، ص .53

لأنها حينها لم تكن قد بلغت الألف بيت بل كانت تبلغ ستمائة و عشرة أبيات ألقاها في افتتاح الملتقى السادس للفكر الإسلامي في قاعة المؤتمرات من قصر الأمم أمام جمع غفير من بينهم "هواري بومدين" إضافة إلى مناسبة أخرى ، و هي الاحتفال بالعيد العاشر لاسترجاع الحرية و الذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر و المدية و مليانة على يد "بلكين بن زيري".

5- الخافق المعذب(شعر)

6- تاريخ الصحافة في الجزائر.

- له عدد من دواوين الشعر لازالت مخطوطة تنتظر من يقوم بإحيائها .

- له عدد آخر من الدواوين بالأمازيغية لم تنشر.[1]

1- موسوعة ويكيبديا الحرة ، مفدي زكريا.

الفصل الثاني

الشعر الثوري عند مفدي زكريا

1-مفهوم الثورة

2-مفهوم الشعر الثوري

3-دور الشعر الثوري في الكفاح المسلح

4-خصائص الشعر الثوري الجزائري

5-نماذج من الشعر الثوري عند بعض الشعراء الجزائريين

6-الشعر الثوري من خلال " الإليـــــاذة"

7-الشعر الثوري من خلال ديوان "اللهب المقــدس".

1_مفهوم الثورة:

المعنى اللغوي للثورة هو : الهيجان ، و الغضب ، و الوثوب و الظهور .[1]

و إذا كان المعنى اللغوي ، كذلك ، فإن المعنى الاصطلاحي لا يختلف عنه كثيرًا ، بل هو مجمل تلك المعاني ، فالثورة في الاصطلاح تعني : عدم الرضا بوضع ما و التعبير عن ذلك بالرفض و الغضب و الهيجان ، و القيام برد فعل قوي و عنيف.

وفي المجال السياسي يستخدم مصطلح الثورة للتعبير عن تحرك عنيف يقوم به شعب ما ضد سلطة حاكمة لا يمثل ذلك الشعب ، و لا تلبي رغباته ، و ذلك قصد الإطاحة بها وبنظامها.

و هناك مصطلح آخر يقابل مصطلح الثورة وهو " الـ تطور " ، فالتطور يعني التغير الطبيعي المتدرج بنظام معين بعيدًا عن الطفرة و الفوضى ، بينما الثورة تعني التغير عن طريق الطفرة و الجهد الطارئ ، العنيف و خرق المألوف.

وواضح أن التطور سنّة طبيعية في كل المجتمعات ، فهي تتغير شيئًا فشيئًا في مختلف مجالاتها ، و لذلك فإنه عندما يلاحظ أن التطور في مجتمع ما و في مجال من مجالات نشاطه يسير بشكل سلبي ، و بالتالي كلما ازداد تطورًا ازداد فسادًا ، فإن الثورة في هذه الحالة تكون حتمية لوضع التطور في مساره الصحيح أي لتغيير وجهته نحو الإيجاب .[2]

---

[1] – ابن منظور : لسان العرب ، مجلد 4 ، دار صبح و اديسوفت ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2006 ، ص 108.

[2] – يحيى الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا ، دراسة فنية تحليلية، ، دار البعث قسنطينة، ط 1،سنة 1987،ص 55،56.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن مصطلح الثورة يحمل معنى الرفض منطلقا ، و الحِدة أسـلوبًا و التغيير الجذري الشمولي هدفًا ، و لذلك فإنه يقترب من << الاصلاح >> من حيث همـا أسلوبان إراديان للتغيير إلا أنهما يختلفان في الحِدة و الشمولية و درجة الرفض .

فالإصلاح يعني رفض شيء ، و الإبقاء على شيء آخر ، أما الثورة فهي الرفض المطلق بأسلوب آخر ، فالإصلاح ترميم لهيكل متصدع قائم ، بينما الثورة هدم من الأساس لإعادة البناء من جديد.

فالنظرة الثورية هي التي ترمي أساسًا إلى رفض الأوضاع من أساسها ، و إلى مقاومـة المستعمر و تحقيق الاستقلال ، سواء بأسلوب صريح أو آخر يعتمد الرمز و التلميح وهذا المفهوم يبرز عند بعض الشعراء في المشرق العربي أمثال محمود درويش و نزار قباني.

2_مفهـــوم الشـعر الثـوري :

الشعر الثوري هو الشعر الذي قيل في موضوع الوطن ، متحدثًا عن آماله وآلامه، معرِفًا بالدواء التي تستشري في كيانه ، مشيرًا إلى الأخطار التي تهدده من قريب أو بعيد. وقد يكون ضمن هذه الأخطار والأدواء ، استعمار مستحوذ ، فرض وجوده بقوة الحديد والنار ، وهب لاستغلال الوطن أرضًا وبشرًا وقد يكون منها تخلق اجتماعي ناتج عن استبداد جملة من التقاليد والأوهام البالية بعقول المواطنين ، تحول بينهم وبين النور الذي يهدي إلى سواء السبيل وقد يكون غير هذا وذاك من المظالم التي تصطلي بنيرانها بعض الشعوب التي كتب عليها أن تجتاز عبر مسيرتها فترة ابتلاء قاسية ومن هنا كانت مهمة الشاعر الثوري مهمة القائد الذي تتجاوب أصداء كلماته في نفوس المواطنين فتحولها إلى

طاقة من العزم الثابت والإيمان الفاعل ، والطموح الوثاب ، فهو يستنهض الهمم ويحرك المشاعر ، ويلهب حماس الجماهير ، وهو الذي يرغب في التضحية ، ويتنادى بالفداء ويدعو إلى الحياة الكريمة في ظل المثل العليا، والأخذ بأسباب الحرية التي لا غنى عنها لإنسان ليعيش عزيزًا في وطنه سيدًا بين بني قومه .

إنه شعر يدافع عن الشخصية العربية وكرامتها بين قوم امتهنوها.

إنه شعر يتشبث بالأرض ويرفض رفضًا قاطعًا الهروب من واقع يعيش أبناؤه في ظل ظروف سيئة .

إنه شعر يخص بأمور لا تحكى، إنها الاضطهاد والاستغلال والتسلط على الشعب العربي في الأرض[1] .

ويرى الدكتور " عبد المنعم تليمة" أستاذ النقد العربي بجامعة القاهرة أن الشعر الثوري مازال موجودًا ويتجلى في أشعار بعض الأفراد ، ويعرفه بأنه الشعر الذي يرنو إلى المستقبل بعيون يقظة وليس ما يسخط وينقلب وينتفض ، فهذه وظيفة الحركات السياسية ،ويوضح أن الشعر يكون ثوريًا عندما ينقل الجماعة من واقعها إلى الأفضل وهو ما يظهر في إبداعات شعراء العامية .[2]

---

1 – نسيب نشاوي : مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر "الاتباعية – الرومانسية –الواقعية – الرمزية " ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1984 م ، ص 433.

2 – http://today.almasry a lyoum,com.

3_دور الشـــعر الثـــوري فـــي الكفـــاح المسلـــح :

لكل ثورة أو حركة تحرير شعراؤها الذين ينتمون إلـــى شـــعبها أو إلـــى الشـــعوب الأخرى، والفريقان يناصران في قصائدهم و أناشيدهم للثورة ، و يحصنان أبناءها و سائر أبناء أمتهم على الانضمام إلى ركب النضال ، و يحثان من تقصر طاقته عن القتال علـــى بذل المال ، أو تقديم ما يستطيع من وسائل العون إلى المحاربين أو إلى أهليهم من أطفال ونساء و شيوخ يضطهدهم العدو المحتل و يشردهم ، أو إلى الأيتام الذين فقدوا آبـــائهم ، والأرامل اللاتي فقدن أزواجهن ، كما يدعون هؤلاء الشعراء الأحرار العالم و المنظمـــات الدولية و روابط حقوق الإنسان ، إلى مؤازرة حركات التحرير بمختلف الوســـائل حتـــى تحقق هدفها الأسمى.

هكذا يقف أولئك المبدعون في صفوف المناضلين و يدافعون عنهم بألسنتهم و أقلامهـــم ، وهم يسمون : شعراء المقاومة ، لأن الدور الذي يقومون به لا يقل أهمية و لا تأثيرًا عن دور المقاومين بالسلاح ، فالكلمة الصادقة البليغة تنفذ إلى أعماق النفس فتهز الوجـــدان ، وتسهم في تعبئة القوى على درب الحرية و التحريض على الكفاح ، و لا يؤثر الشـــاعر الوطني أو الإنساني في أبناء الشعب الذي تقوم طليعته بالثورة وحدهم ، بل كثيرًا ما يصل صوته عبر وسائل الإعلام إلى كثير من البلدان الأخرى ، و قد يكون من بينها بلد العـــدو نفسه إذا تُرجمت قصائد هذا الشاعر إلى لغته ، مما يؤدي إلى كسب مزيد مـــن أنصـــار الثورة أو المتعاطفين مع شعبها ، و قد تتسع دوائر هذا التأثير حتى تشمل العـــالم بأســـره على اختلاف المواقع الجغرافية و تباين الأنظمة السياسية ، و يقف شعراء المقاومة فـــي

مقدمة المثقفين و المبدعين لأنهم يمثلون منذ فجر التاريخ ضمير البشرية و قدرة الشعوب على الاستمساك بحبل الحق مهما استبد الطغيان و اشتد العدوان و لأنهم يملكون سلاح الكلمة و الفكر الذي يستطيع التغلب على الأسلحة المادية ، و بهذا السلاح المعنوي يدافعون عن أقدس قضية و هي :

الحرية و العدل ، فيستيقظ النائم من غفلته و تتآلف القلوب إذ يجتمع فيها الصدق والحرارة.[1]

لذلك كان من الطبيعي أن تنجب ثورة الفاتح من نوفمبر شعراء مقاومة اعتنقوا مبادئها وانظموا إلى صفوفها و ناصروها بقصائدهم متحدين المستعمر مضحين بأمنهم و حريتهم و منهم من ضحى بحياته مستشهدًا.

4_خصائص الشعر الثوري الجزائري :

حين يتبع الدارس الشعر الثوري يجد في طليعته أنه يتميز بكونه شعر قضية و شعر النضال ضد الاستعمار .

و ارتباط الثورة بالنضال ضد الاستعمار سمة اكتسبها الشعر الثوري الجزائري من ظروف الاحتلال الفرنسي للجزائر.

و من خصائص الشعر الثوري كذلك أنه شعر الدفاع عن الحقوق الوطنية ، فالاحتلال المنتصب في أرض الوطن استولى على الحكم و مصادر الثروة و التجارة ، و احتكر كل خيرات و منافع الوطن ، و أنكر على الجزائريين حقهم الطبيعي في وطنهم و خيراته ،

---

1 – حسن فتح الباب : ثورة الجزائر في إبداع شعراء مصر ، الدار المصرية اللسانية ، الطبعة الأولى رجب 1426هـ أوت 2005 ص 32 ، 33.

وقد تصدى الشعر الثوري الجزائري ، للمحتلين الفرنسيين ورد مزاعمهم الكاذبة و دافع عن حقوق الشعب الجزائري ، وحين أفلست الوسائل السلمية في الدفاع و المطالبة بالحقوق ، تبنى الشعر الثوري الدعوة إلى مواجهة الاستعمار بالعنف ، و بالإضافة لما سبق فإن الشعر الثوري كان شعر الدعوة إلى النهضة و تحقيق التقدم فالاحتلال كانت له آثار سلبية شاملة و عميقة أدت بالوطن إلى التخلف في جميع الميادين ، وقد اعتنى الشعر الثوري الجزائري بالوضع السابق و ربط بينه و بين الاحتلال.

و أخيرًا نجد الشعر الثوري يبتعد عن الحزبية و يتمسك بالروح الوطنية العالية يوجه النقد للأحزاب و يدين خلافاتها و يبحث على الوحدة الوطنية و يعتبرها سلاحًا مهمًا.[1]

و هذه الخصائص التي يتسم بها الشعر الثوري الجزائري ، هي خصائص يشترك فيها الشعر الثوري العربي بصورة عامة.

أما بالنسبة للخصائص النابعة من البيئة الثقافية الوطنية ففي مقدمتها : سمة التشابه في المواضيع و الأغراض ، و مصدر هذه السمة يتمثل في تأثير المصلحين على النهضة ويعكس تأثيرها القوي على الأدب في فجر النهضة ، و يعود ذلك إلى أن حركة الإصلاح كانت إطارًا ثقافيًا ضم معظم المثقفين باللغة الوطنية بعد تشتت و ضياع ، ووجههم إلى غايات دينية و ثقافية ووطنية منذ بدأت الدعوة إلى تأسيس هيئة وطنية تضم شمل المثقفين و تنظم جهودهم .

---

1 – أحمد شوقي الرفاعي : الشعر الوطني الجزائري ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، (2010) ، ص 230.

و قد أدى تأثير المصلحين القوي مع ضعف النقد إلى أن يتجه الشعر الثوري وجهة اجتماعية ، و يصور آراء المصلحين في الأحداث و القضايا التي يتطرق إليها الشعراء أكثر مما يعبر عن آراء الشعراء أنفسهم ، و يتبين الدارس ذلك من التفاف الشعراء حول موضوع واحد أو مواضيع متشابهة و تناولها من جوانب متقاربة ، و هذه الظاهرة تعكس أهمية الموضوع الملتف حوله عند المصلحين و حرصهم على كسب الأنصار له ، و من ذلك موضوع الصحافة الوطنية و الإشادة بها و التنويه بدورها في تحقيق النهضة فكتاب << شعراء الجزائر في العصر الحديث >> يضم الجزء الأول منه ست قصائد عن الصحافة الوطنية ، من ذلك قول محمد العيد آل خليفة على لسان الشهاب :

خليا عنكما حديث احتجاجي عرجابي على العلا عرجابي
و اركبا بي متن النجاح و خوضا بي عباب الإصلاح فهو عبابي [1]

كما اتسمت قصائدهم بالتكلف و الرتابة السطحية في الرأي ، و أدى كذلك إلى أن تضعف صلة قصائدهم بالشعر ووظيفته الجمالية و الفكرية.

و يتصل بما ذكرنا من تأثير المصلحين ظهور سمة أخرى في الشعر الثوري الجزائري هي : الروح الخطابية البارزة في الشعر ، فمع أن مهمة الشاعر هي الكشف عن مجهول النفس الإنسانية و الإيحاء لها بصورة حقيقية كما تتراءى للحدس و تترجم عنها الأحاسيس[2]، إلا أن الشعراء الجزائريين تخلوا عن المهمة السابقة ، و سلكوا نهجًا خطابيًا

---

1 – الزاهري محمد الهادي : شعراء الجزائر العصر الحاضر ،ج1 ، تونس ، المطبعة التونسية 1926 ، ص 25.

2 – قطب سيد : مهمة الشاعر في الحياة ، دار الشروق ، بيروت ،ص 15 .

واضحًا ، كان من أهدافهم بث الوعي الوطني و تكوين المواطن ، و معظم هذه السمات نجدها في القطعة التالية للقاني بن السائح :

إليكم أيها النبلاء إليكم ترددد أمكم صوتا حزينـــا
سراعا للتحابب و التآخي و كونوا على الولا متعاهدينا
على نشر المعارف في صغار على روح التقدم في البنينـا
على بث الزراعة في كهول بها نستخرج البتر الثمينـا[1].

و الشاعر الجزائري كغيره من الشعراء ، إنما كان يعنيه من شعره أن يحرك الهمم ويساعد على تغيير الواقع و يدفع اليأس و الخنوع عن النفوس ، لذلك فإن النزعة الخطابية في الشعر الثوري بصورة عامة ، إنما تستجيب لمجمل المتطلبات السابقة ، وتعتبر ظاهرة طبيعية أدت وظيفتها النفسية و الفكرية في مرحلة من مراحل الثورة.

و قد أدى تأثير العوامل و الظروف السابقة إلى بروز سمة أخرى تمثلت في الشعر الثوري الجزائري هي الواقعية ، و الواقعية التي نعنيها ليست الواقعية الفنية التي تعني <<الاتجاه بالأدب نحو الكشف عن الشرور و الآثار الكامنة في النفس البشرية >> [2] ، وإنما هي واقعية الموضوع ، و المتتبع لهذا الجانب في الشعر الثوري الجزائري يلاحظ أن أفكارهم مستمدة من الواقع المعاش و تتبعه بالوصف و تكشف بذلك عن مشاعر الألم التي تضطرم في النفوس بسبب الاحتلال و قيوده البغيضة و تبين عمقها و أبعادها.

و من ذلك القطعة التالية لمحمد الصالح رمضان ، و هي قصيدة ثورية يصف فيها مصرع مواطنين ، برصاص الشرطة الاستعمارية أثناء مظاهرة وطنية ببسكرة، يقول :

---

1 – الزاهري محمد الهادي : المرجع السابق ، ص 42.

2–محمد مندور : في الأدب و النقد ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة، ص 119.

تضوع مسكا في الجزائر كلـــــــــها دم طاهر من مسلمين تخرمـــــــــا
و أربعة جرحى مضـــــــــــــرة كلومهم تجري إلى الآن بالدمـــــــا [1]

إن خصائص الشعر الثوري الجزائري كانت نابعة من بيئتــه الثقافيــة و مــن عصــره السياسي، و إذا كنا قد لاحظنا جوانب سلبية في الشعر الثوري الجزائري ، فإن ما عبروا عنه من صدق في الوطنية و تفانٍ في خدمة المجتمع الجزائري و نهضته و دفــاع عــن حقوقه ، يجعل النظرة إليهم تمتلئ بالتقدير لمجهوداتهم الأدبية و لمواقفهم الوطنية .

5- نماذج من الشعر الثوري عند بعض الشعراء الجزائريين :

لقد رفع الشعر في الجزائر لواء الثورة قبل اندلاعها بوقــت لــيس بالقصــير ، و خاض غمارها و هي بعد في مخبئات الغيب ، فأعطى صورة رائعة للأدب الرائد و الفكر الطليعي ، و من هذه الزاوية فإن التوقيت المعروف للثورة المسلحة الأخيرة ، لن يكــون لذي بال بالنسبة للشعر ، فإن ما يمكن أن يطرحه هذا التوقيت من مواقف و بطــولات ، عاشه الشعر تطلعًا و استشرافًا من سنين عديدة ، و ما قد تتمخض عنه الثورة و أبعاد في الاستماتة ، و تصاعد في المقاومة ، قربه الحدس الشعري في وقت مبكر.

و يؤكد هذه الحقيقة أن الشعراء الذين سبقوا ميلاد الثورة بأشعارهم الثورية ركنــوا فــي عهدها إلى ما يشبه الصمت المطبق ، فاستقبلوها بهدوء المنتظر المتوقع و كمون الموقــد للفتيلة يترقب انفجارها ، و ما أبعدهم عن ارتعاشة المفاجأة و نزوة العز المباغث ، و من أبرز شعرائنا المعاصرين ، الذي رافق شعره مختلف مراحل النهضة الجزائرية الحديثــة

---

1 – الشهاب ، ج 12 ، م 13 ، (فيفري 1938) ، ص 612.

ثقافيًا ووطنيًا هو محمد العيد آل خليفة و أحسن ما نحيي به روحه الزكية هذه الأبيات التي فاضت بها قريحته و قد نُشرت تحت عنوان "صوت جيش التحرير":

نحن جيش التحرير جند النضال نحن أسد الفدى نمور النزال
دمدم الطبل للنفير فثرنا و هززنا البلاد كالزلزال
واتخذنا من الجبال قلاعا نقرع السمع بالصدى كالجبال
فالإذاعات تنبئ الناس عنا بانتصاراتنا بكل محال
كم أقمنا شواهد الحق فيها و ضربنا شوارد الأمثال
و اقتحمنا الهيجاء نارا تلظى كل صال منّا بها لا يبالي
و أدرنا رحى الوغى فانتصرنا و أذقنا الأعداد مر النكال
و قبرنا استعمارهم و فككنا شعبنا من سلاسل الأغلال [1]

إضافة إلى قصيدته المعنونة بـــ: "من وحي الثورة و الاستقلال ":

وطني المفدى بالكفاح تحررا و مصيره بعد النجاح تقررا
فابن الجزائر صار سيد أرضها و الغاصب المحتل ولى مدبرا
بشرى لنا بحكومة عربية شعبية رعت البلاد لتعمرا
قد كان تحرير الجزائر غاية مثلى لثورتنا و فتحا أكبرا
أبدى نظاما للرشاد ممهدا و أقام حكما للبلاد مطورا
و قضى بتعريب الجزائر كلها مستقبحا تغريبها مستنكرا [2]

وشعراء آخرون اختفت أصواتهم الداوية رصاصات الجلاد ومقاصله أمثال الشاعر :

محمد الأخضر السائحي يقول في قصيدته "نوفمبر يا موعد الثائرين" :

نوفمبر يا موعـــد الثائرين وأنشودة النصر طول الزمان
ويا موقد العزم في كل حين ويا حارس الحق في كل آن

1 – ديوان محمد العيد آل خليفة : دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، طبعة 2010 ، ص 390.
2 – المرجع السابق، ص 404.

نوفمبر يا صانع المعجزات

لياليك جادت بهذا الضياء وصاغت من الأرض هذي السماء

وأعطت لشعبي هذا الشموخ فكـــــان الصعود وكان العلاء

نوفمبر يا صانع المعجزات

تطل فيشرق هذا الوجود وتملؤه بسمات السرور

وتشمخ حين تهل الحياة وتطفح بالبشر فيك الصدور

نوفمبر يا صانع المعجزات

ألست هنا كل هذي الحقول وهذي المعاهد والجامعات

وهذي الأكف وهذي الزنود وتلك الخلال وتلك الصفات

نوفمبر يا صانع المعجزات [1]

زد على هذا الشاعر عبد الرحمن بن العقون فمن أبرز قصائده " لوانا خافق"

أنا شعب هذه الظلم وإعصار الغزاة[2]

فانثني بعد ومن القبر إلى نور الحياة

ينشد العز بأغلى الثمن

إن مليونا و نصفاعلموا الدنيا الشهامة

برهنوا أن الجزائر جددت معنى الكرامة

وانبرت تسبق سير الزمن

لا تعجب إذ يراها الله أختا عربية

فهي للحرية الحمراء أم حنفية

وربيب المجد بالخلد قمن

سوف نبني نعلي مجدنا فوق الجباه

و نعيد اليوم عزا شامخا عز دراه

ولوانا خافق يرعى الوطن

---

[1] – محمد الأخضر السائحي : أغنيات اوراسية ، ش و ن ت 1979.

[2] – جاء في مقدمة النشيد ما يلي : (و هذه مشاركة في مسابقة النشيد القومي التي أعلنت عنها الجرائد الوطنية و لكنها بقيت مهملة) قصيدة من ديوان الشاعر بعنوان " السيد القومي الجزائري".

وحدة العرب و إفريقيا لنا خير هدف
و نرى في الذوذ عن حوزتنا كل الشرف
و يحدو وحدة الإنسان جدا مؤمنون

5_الشعـــــر الثــوري عنــد مفـــدي زكـــــريا:

أ-الشـــعر الثــوري في الإليـــــــــــــاذة :

يؤكد مفدي في المقطع الخامس و الثلاثين أن حادثة المروحة التاريخية (1827) لم تكن إلا ذريعة خبيثة لاحتلال فرنسا للجزائر و أما الأسباب الحقيقية فهي الطمع في خيرات الجزائر خاصة القمح ، و المشاكل الاقتصادية و الاجتماعية في فرنسا بسبب سياسة شارل العاشر و أهمها البطالة و الفقر ، و ربما كان أهم سبب للاحتلال تلك الديون الضخمة المستحقة للجزائر من دولة فرنسا و التي عجزت عن سدادها.فقد جاء في "تحفة الزائر" : <<دولة فرنسا تؤدي للحكومة الجزائرية سبعة ملايين فرنك...>>[1]

فيقول مفدي:

و حزب شارل المريض فرنسا فثار بها الشعب يغلي انتقاما
و ضاق الفرنسيس بالعاطلين و ما ذاق شارل المريض مناما
و أوحى له قمحنا غزونا فأطلق هذي القموح سهاما
و مروحة الداي لم تك إلا كما يستبيح اللصوص الحراما [2]

---

[1]- – الأمير خالد بن عبد القادر : تحفة الجزائر في مآثر الأمير عبد القادر ، الجزء الأول ، المطبعة التجارية الإسكندرية ، مصر ، 1903 م ، ص 82.

[2] – مفدي زكريا،إلياذة الجزائر،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،ورشة احمد زبانة ،الجزائر1986،المقطع 35ص 53 .

و قد كان لهذا الاحتلال الأثر العميق على الشعب الجزائري و أول أثر له الرفض القاطع و الثورة عليه و منعه من التغلغل داخل التراب الوطني.

و هنا كتب الشعب الجزائري تاريخ النضال و الكفاح ، و من أول يوم وطئت أقدام الاستعمار أرض الجزائر الطاهرة و أولى صور هذا الرفض للاحتلال تلك الثورات الشعبية ضد المحتل و التي كانت درعا واقيا ضد التغلغل السريع للاستعمار الفرنسي ، وهنا يتأكد اعتزاز مفدي بشعبه الأصيل الذي يرفض أن يطأطئ الرأس أو يحني الجبين.

و هل يخفض ابن الجزائر هاما و يحني جبينا أمام الصراصر ؟ [1]

***المقـــاومة الشـــعبية ضـــد الاستعمـــار :**

في الجهة الشرقية سجلت مدينة "سيرتا" قسنطينة بدفاعها المجيد ضد الاحتلال الفرنسي صفحة خالدة من صفحات البطولة فقد صمدت بزعامة احمد باي سبع سنين تحت الحصار.

بلى يا فرنسيس ، هذا الحمى صنعنا سيادته بالدما
صعدنا نقاوم شرقا و غربا و نجعل أرواحنا سلما[2]

و في الجهة الغربية "معسكر" قاد المقاومة الأمير عبد القادر ابن الشيخ محي الدين الهاشمي ، بعد مبايعته و هو في الرابعة و العشرين من عمره سنة 1832 م . وقد أذاق فرنسا و جنرالاتها الأمرين خاصة انه أسس دولة إسلامية جزائرية فنظم الجيش و خطط

---

[1]– المصدر نفسه، البيت 4 المقطع38 ص 56.

[2] – المصدر نفسه ، البيت 1–4 ، المقطع 36 ص 54.

للمعارك و المهادنات و طوال السنين التي قاربت السبع عشرة من الصمود و المقاومة تجرعت فرنسا مرارة الخيبة أمام أمير فارس شاعر مؤمن بقضيته العادلة.

يقول مفدي :

أيا عبد القادر.....كنت القديرا و كان النضال طويلا عسيرا
و نظمت جيشا ، و سست بلادا فكنت الأمير الخبير الخطيرا
و حملت ماريان مالا تطيق و جرعت بيجو العذاب المريرا
ثمان و عشر...تخوض المنايا و تجزي السرايا و تبني المصيرا [1]

و في بسكرة و بالقرب منها في واحة الزعاطشة تنفجر المقاومة بزعامة البطل "عبد الرحمن بن زيان" شيخ الزعاطشة سنة 1846 م و الذي صمد أمام جبروت فرنسا وجنودها و رفض الاستسلام و الخضوع و رضي بالشهادة دفاعا عن أرضه.

يقول مفدي :

تحدي ابن زيان سخف اللئام فمات الشهيد فداء الجزائر
لتشهد بسكرة إصرارنا و صدق ندانا أمام المجازر[2]

ثم تتواصل المقاومة على يد "بومعزة" في سطيف و "بوبغلة" في قسنطينة ، يقول مفدي :

و يذكر أبو معزة للجبال صراع أبي بغلة في المغاور
و تحفظ سطيف لأبطالها و أبطال سيرتا جليل المفاخر[3]

كأن الجزائر خلقت من طينة النضال لا تهدأ و لا تستسلم و لا تنحني فالثورة مستمرة في السهول و الجبال و أوراس و جرجرا و الرمال : يقول مفدي :

---

[1]– المصدر السابق ، البيت 1،3،5،6 المقطع 37 ، ص 55.

[2] – المصدر نفسه ، البيت 3،5 المقطع 38 ص 56.

[3] – المصدر نفسه ، البيت 7 ، 8 المقطع 38 ص 56.

جزائر ، أبدعها ذو الجلال و صوّر طينتها من نضال
فما انكفأت ثورة في السهول و لا انطفأت ثورة في الجبال
و لم يحن أوراس هامته و لا هدأت عاصفات الرمال [1]

فهذا الأمير خالد ابن الأمير عبد القادر الجزائري يطالب بحقوق الجزائريين و يشكل وفدا يتجه إلى "فرساي" يطالب بحرية الشعوب في تقرير مصيرها .يقول :

و راود صدق الضمير الأمير فقام يلاحق طيف الخيال
و يعدو بفرساي خلف الوعود يناشد ولسون فرض المحال !! [2]

فتوجه الأمير خالد إلى الرئيس "ولسون" رئيس أمريكا بمؤتمر الصلح 1919 م بعريضة جاء فيها << إذ نطلب إرسال نواب عنا نختارهم بحرية لتقرير مصيرنا تحت إشراف جمعية الأمم إن شروطكم الأربعة عشر من أجل السلم العالمي ، و التي تحظى بموافقة الحلفاء و القوى الوسطى ، يجب أن تعتمد كقاعدة لتحرير كل الشعوب المضطهدة بدون فرق على أساس العرف و الدين >> [3] .

***ثــورة التحريــر 1954 م :**

و أخيرًا تأتي الليلة الحاسمة التي انتظرها مفدي طويلاً تلك الليلة التي أعلنت في الفاتح نوفمبر اندلاع ثورة التحرير فانطلقت أول رصاصة تعلن الحرب على

1- إلياذة الجزائر، البيت 1 ،3، 4، 8، 9 المقطع 42 ص 60.

2 - المرجع نفسه ، ص 60.

3- شارل روبير أجيرون : الآمال المعلقة على المبادئ الولنسية (المجلة التاريخية المغاربية) العدد 19 و 20 سنة 1980 م.

الاستعمار والاستبداد و تطالب بالحرية و الاستقلال ، فكأن تلك الليلة هي ليلة القدر التي نزلت فيها آيات القرآن الكريم نورًا للعالمين يبدد ظلام الكفر.

يقول مفدي :

تأذن ربك ليلة قدر و ألقى الستار على ألف شهر
و قال له الشعب بأمرك ربي و قال له الرب: أمرك أمري !!![1]

كانت ثورة التحرير الجزائرية ملهمة للشعوب المستعمرة إذ أخذت تحدو حدو الثائرين في الجزائر و تطالب هي أيضا بالاستقلال :

و نلهم ثورتنا مبتغانا فتلهم ثورتنا العالمينا

و رغم أحزان الجزائري و آلامه فإن فلسطين في قلبه وروحه و ها هو مفدي ينصح الإخوان الفلسطينيين بالوحدة ضد العدو الإسرائيلي :

فليت فلسطين تقفوا خطانا و تطوي كما طوينا السنينا !!

ب_الشعـــر الثـــوري من خـــلال ديـــوان "اللهـــب المقـــدس" [2]

لا يخفى على أي قارئ لأشعار مفدي زكريا أن يلاحظ ظاهرة فريدة مميزة لأشعاره ألا وهي ظاهرة "الثورة" و التحمس لها ، فقلما تخلو قصيدة من قصائد ديوانه "اللهب المقدس" من هذه الظاهرة ، و قد صرح هو نفسه بهذه الحقيقة في مقدمة ديوانه (ص : 4) عندما قال :<< اللهب المقدس هو ديوان الثورة الجزائرية بواقعها الصريح ،

---

1 – المصدر السابق ، البيت 1 ، 2 المقطع 51 ص 69.

2 – نشر المؤلف هذه الدراسة الأدبية بجريدة النصر في حلقتين : يوم (20 ،21 /أوت/1988 م)

وبطولاتها الأسطورية ، و أحداثها الصارخة ، و هو (شاشة تلفزيون) تبرز إرادة شعب استجاب له القدر >>.

فالمتصفح لديوان شاعرنا لا تغيب عنه هذه الحقيقة ، فهو كله ثورة ، وقصف ونار ، ورصاص ،....، وقد يستشف القارئ لهذا الديوان ، ويعثر على الروح –والروح مذكر – الثوري في أغلب الأحيان ، وبدون جهد من خلال عناوين القصائد التي يشتمل عليها ، فعندما نقرأ مثلا : (فاشهدوا) يتبادر إلى أذهاننا بأن هناك جماعة من الثوار في وسط معركة حامية الوطيس ، وأن الاستعمار لم يعترف بحقوقها ، وبالتالي فشاعرنا يدعوها إلى الاستشهاد في سبيل نيل حريتها ، واستقلالها ، وكرامتها .

ونفس الشيء بالنسبة للعناوين التالية : (وتكلم الرصاص جل جلاله) ، (سنثأر للشعب) ، (فلا عز ...حتى تستقل الجزائر)، (الذبيح الصاعد) ، (زنزانة العذاب رقم : 73) ، (...حروفها حمراء) ، (أنا ثائر) ، (المارد الأسمر) ، (أذكروا الثورة في أقسامكم) ...فكلها عناوين موحية بالثورة ، وبما حدث فيها من عذاب ، وقتل ، وقهر ، وهتك حرمات ، وتشريد ....

والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو ما مفهوم الثورة عند الشاعر "مفدي زكريا" وكيف كان ينظر إليها ؟ وعلى من ثار ؟

من خلال قراءتنا لديوان شاعرنا لاحظنا أن مفهوم الثورة عنده يختلف اختلافًا كليًا عن مفهوم الثورة الكلاسيكي التقليدي المتعارف من قبل الأوساط الاجتماعية ، فالثورة بالمفهوم القديم تعني أن جماعة من الناس دخلوا بلاد غيرهم ، واستعمروها ، فواجب على

أهل هذه البلاد أن يقوموا بثورة ضد هؤلاء الدخلاء ، وبتعبير أدق إن الثورة بهذا المفهوم تقوم بين طرفين ، الطرف الأول هو الاستعمار ، والطرف الثاني هم أصحاب الأرض : لكن مفهوم الثورة عند شاعرنا يختلف كثيرًا عن المفهوم السابق ، فمفهومه لها شاسعًا لا يحد بمقياس ، والثورة عنده لا تكون ضد طرف واحد والمتمثل في الاستعمار ، بل عدة أطراف ، فهو يثور على الاستعمار ويثور على الركود ، ويثور على الجبان ، ويثور على القانع ، الخنوع ، البليد....[1] ، يقول :

ليس في الأرض سادة ، وعبيد كيف نرضى أن نعيش عبيدا ؟
يا سماء اصعقي الجبان ، ويا أر ض أبلعي القانع الخنوع ، البليد [2]

فالشاعر –في البيت الأول –يبين للاستعمار أنه لا ولن يمكن بأي حال من الأحوال أن يرضى هو وشعبه العيش تحت نير العبودية ووطأة الاستعمار.

ثم يأتي في البيت الثاني ، ويشن ثورة على الإنسان الجبان ، القانع ، الخنوع ، البليد ، الذي لا يفكر بتاتًا في غده ومصيره ، وصرخة شاعرنا في البيت شبيهة تمامًا بصرخة الشاعر " أبي القاسم الشابي" عندما قال :

وألعن من لا يماشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر[3]

فالشاعر يعبر عن نوع من الغضب والكره اتجاه الإنسان الخنوع الجبان ، فيطلب من السماء أن تصعقه ، كما يطلب من الأرض أن تبلع ذلك الإنسان الذي يقنع بأرخص وأتفه

---

1 – محفوظ كحوال : من أروع قصائد مفدي زكريا مع دراسة أدبية ، نوميديا للطباعة و النشر و التوزيع ، د .تاريخ، ص 12-13.

2– اللهب المقدس ، الذبيح الصاعد ، ص 16 – 17.

3 – مفدي زكريا : المصدر السابق ، ص 199 ، 200 ، 201

الأشياء التي كانت فرنسا تسلمها إياه ، فثورة شاعرنا في البيت السابق موجهة إلى الإنسان الجزائري الذي يرضى بالذل والهوان ، وليست ثورة على الاستعمار الغاصب المستبد .

وقد يكون غريبا أن تحدد لثورة الجزائر أسباب معينة ، إلا أن هناك أسباب يمكن وصفها بالرئيسية والمتمثلة في الظروف المأساوية التي أصبح يتخبط فيها الشعب الجزائري ، ولعل أجمل ما قاله شاعرنا في تصوير ، وتجسيد تلك الحال المؤسفة التي آل إليها شعبه ، ما جاء في قصيدته المعنونة بـــ" سنثأر للشعب " والتي أنشدها في المهرجان العظيم ، الذي أقامه الديوان السياسي للحزب الدستوري نوفمبر 1960 يقول :

فخبريني الدنيا –نوفمبر أننا سنثأر للشعب الذي لم يزل يشقى
سنثأر للبيت الذي كان أملا فرجت به الألغام تسحقه سحقا
سنثأر للبنت التي ديس قدسها ودنس أجناس الخنا عرضها الأنقى
سنثأر للطفل الرضيع ، وقد غدا وفي فمه الرشاش –يحسبه رزقا
وللشيخ تؤتى زوجه ، وهو موثق يراها فما يستطيع دفعا ، ولا نطقا
سنثأر للأكواخ ، والدور ، والقرى يهشمها (النابالم) يحرقها حرقا
وللاجئين التاريكين بيوتهم وما ترك التخريب فيها ، ولا أبقى
سنثأر للحر الفدائي ، قد غدا ذبيحا يناجي الخلد حن له شوقا
وللشهداء في الساح يحصدها الردى وتجري دماها ، في ربوع الحصى دفقا[1]

إذا تأملنا هذه الأبيات نجد أسباب ثورة شاعرنا واضحة للعيان ، فهو يثور ، ويثأر لشقاوة شعبه ، الذي أخرج غصبا من دياره التي سحقتها الألغام ، ويثأر لتلك الفتاة التي سلبوا منها عزها ، وشرفها ،ويثأر لذلك الطفل البريء ، ذلك الشيخ المسن الذي تؤتى زوجته ، على مقربة منه ، ويثأر لما خلفته طلقات النابالم على القرى ، والمداشر .

1– المصدر نفسه، ص 199 ، 200، 201.

لقد كان الإسلام حصنا منيعا احتمت به الشخصية الجزائرية ، من مخططات الاستعمار الرامية إلى مسخها بالتجنيس والإدماج ، يقول مفدي :

فلسنا نرضى الامتزاج ولسنا نرضى التجنيسا
ولسنا نرضى الإندماجا ولا نرتد فرنسيسا
رضينا بالإسلام تاجا كفى الجهال تدنيسا[1]

وفي ثورة نوفمبر 1954 ، قام الإسلام بدور أساسي في تعبئة الشعب بالحماسة ونفخ روح التضحية والفداء في النفوس ، باعتبار ذلك جهادا في سبيل الله ومقاومة الطغيان وذلك ما يتجلى في شعر مفدي ، فالإسلام فيه يمثل روح الثورة ومحركها الذي تدور حوله الأحداث ، فثورة الجزائر لم تقم إلا بالإتحاد بين إرادة الله وإرادة الشعب فالله يأمر الشعب أن يكون حربا على المستعمر الذي تجاوز الحدود وعاث في الأرض فسادا يقول مفدي :

وقال الله كن ياشعب حربا على من ظل لا يرعى جنابا
وقال الشعب : كن يارب عونا على من بات لا يخشى عقابا
فكان وكان من شعب ورب قرار أحدث العجب العجابا[2]

إن ثورة شاعرنا كما نلاحظ في هذه القصيدة –وغيرها من قصائد الديوان ثورة حقيقية نابعة من أعماق قلبه ، فهي لم تكن آتية من خارج الوطن بل كانت من داخل هذا الوطن وناجمة عن معايشته لأحداثها ، ولذا فعاطفة شاعرنا عاطفة جياشة صادقة وهذا هو الشعر الثوري الحقيقي فعلى الشاعر أن يعيش التجربة وأن يغوص في المأساة ، وذلك حتى لا تكون أشعاره أشعار حبر فقط ، بل أشعار حبر ودم ورصاص ، وما يؤكد صدق عاطفة

1- المصدر السابق ، ص 105.

2 - المصدر نفسه ، ص 32.

شاعرنا دعوته الجريئة إلى استمرارية الثورة والموت ، والاستشهاد في سبيل هذا الوطن الغالي ، حيث نلتمس هذه الاستمرارية في نشيد جبهة التحرير حيث يقول مفدي :

على استقلالنا يا فرنسا ثرنا وحتى شيء في الدنيا ما يرجعنا
الصدر ضاق والرصاص تكلم صوت الجزائر في قمم الجبال يد مدم
الله أكبر أنا عربي مسلم[1]

.ويقول متحدثا عن استمرارية الثورة ، وعن رفض الشعب الجزائري للاستعمار :

والشعب شق إلى الخلود طريقه فوق الجماجم ، والخميس لهامُ
وأثارها حربا لأجل بقائه قربانها الأرواح ، والأنسامُ
لا النار ، لا التقتيل يثني عزمه لا السجن ، لا التنكيل ، لا الإعدامُ[2]

فكيف يتراجع ويستسلم ودم السابقين قد سرى بروحه وبروح شعبه ، فبث فيهما معاني الفدا يقول :

سرى بالروح دم الفاتحين فاذكى فيها معاني الفدا
تخوض الكون مع الخائضين و لا نريد و لا بالردى
و نعلي الصرخة في الصارخين ننادي العزة ، و السُؤددا
فلسنا نرضى مع العالمين حياة نبقى بها أعبدا[3]

فمهما كانت سياسة الاستعمار فالشعب الجزائري لا و لن يتراجع عن مبدئه الثوري و قد عبر مفدي عن هذا المبدأ السامي تعبيرا رائعا في قصيدة "أهدافنا في العالمين صريحة !" و التي قالها بمناسبة مناقشة القضية الجزائرية في الدورة الرابعة عشر العادية للمنظمة

1- مفدي زكريا : المصدر السابق ، ص 80 ، 83.
2- المصدر نفسه ، ص 45.
3 - مفدي زكريا : المصدر السابق ، ص 105.

الدولية المنعقدة في سبتمبر 1959 و التي أسفرت عن تواطؤ دول الحلف الأطلسي على خذلان اللائحة الإفريقية الآسيوية يقول :

أهدافنا في العالمين صريحة الشعب أعلنها و فسرها الدم
السلم ، نحن رجالها ، لكننا شجعان يا "ديغول"لا نستسلم
إذا كان في طي السلام مذلة فالموت أشرف للكرام و أسلم
أو كان تقرير المصير خديعة فلنعم تقرير المصير جهنم [1]

و قد أصبحت قضيتنا الدفاع عن الجزائر ، و استمرارية الثورة المسلحة كركن أساس من أركان الإسلام ،وبالتالي فالتخلي عنهما ،أو تأجيلهما كالذي يتخلى عن ركن مهم من أركان الإسلام ، أو يؤجله إلى أجل غير مسمى ، و إن دال هذا على شيء فإنما يدل على قداسة الثورة الجزائرية و طهارتها ...يقول مفدي زكريا مؤكدا لفرنسا الطاغية أن موت الشعب الجزائري في سبيل الحصول على استقلاله دين عليه ، وواجب تأديته مهما كانت الظروف ... :[2]

يا فرنسا... كفى جهلا فإن لنا شعبا يرى الموت في استقلاله دينا
لا سلم في الأرض ما دامت قضيتنا لم تلق في الأرض بالقسط الموازينا
ثرنا على الظلم ، لا نلوى على أحد لا شيء في الكون دون العز يرضينا

و إنه لا يخفى على أحد وحشية المستعمر الفرنسي الحاقد حيث كان الجند الفرنسي المتوحش يضع فوهة المسدس في فم الأطفال الرضع و يفرغه في أحشائهم ، كما كان

1- المصدر نفسه ، ص 145.

2- المصدر نفسه ، ص 151.

يعمد إلى ربط سيد العائلة إلى شجرة و يهتك عرض زوجته و بناته على مرأى منه ، يقول مفدي زكريا في ذلك :

و الشعب شق إلى الخلود طريقه فوق الجماجم ، و الخميس لهام
و أثارها حر بالأجل بقائه قربانها ، الأرواح و الأنسام
لا النار ، لا التقتيل ، يثني عزمه لا السجن ، لا التنكيل ، لا الإعدام !
لا الذريات ، الماحقات ، هواطلا لا الشامخات ، تدكها (الألغام)
لا القاصرات ، الغافلات ، كواعبا دنست قداستها ، و قص ختام
لا الحاملات ، بطونها مبقورة ذبحت أجنتها ، و فك حزام...
لا ، و المراضع عوضت أثداوها بفم المسدس ، و الرصاص فطام
و الأم يهتك عرضها ، و فحولها حول الفضيحة شاخصون قيام
ياللفظاعة ، من وحوش جوع تسمو على أخلاقها الأنعام ! [1]

و لم يسلم شاعرنا من وحشية المستعمر و هذا أثناء سجنه بسجن "بربروس" حيث تعرض لعذاب شديد و قاس من قبل المستعمر الغاصب إلا أن كل هذا العذاب لم يثن من عزيمته و لم تستطع فرنسا أن تأخذ منه ما تريد من معلومات حول عمله السياسي ، وكان من أروع ما كتب قصيدته الموسومة بـــ:"زنزانة العذاب رقم 73" و قد نظم هذا القصيد في ظلام الزنزانة و حفظه بيتا بيتا لاستحالة كتابته فيقول :

سيان عندي ، مفتوح ومنغلق يا سجن ، بابك ، أم شدت به الحلق
أم السياط ، به الجلاد يلهيني أم خازن النار ، يكويني فاصطفق
والحوض حوض ، وإن شتى منابعه ألقى إلى القعر ، أم أسقى فانشرق
سري عظيم ، فلا التعذيب يسمح لي نطقا ، ورب ضعاف دون ذا نطقوا
يا سجن ،ما أنت ؟لا أخشاك ، تعرفني من يحذق البحر ، لا يحذق به الغرق
إني بلوتك في ضيق ، وفي سعة وذقت كأسك ، لا حقد ولا حنق

1- المصدر السابق ، ص 43.

أنام ملء عيوني ، غبطة ورضا على صياصيك ، لا هم ولا قلق [1]

وينفض مفدي يديه من الحبر والورق ، كأنه ليس بالشاعر الأديب ، إنه يرى في دم الأحرار الحروف التي لا تمحى والأصداء التي تخترق الصمم فيقول :

حقوقنا بدم الأحرار نكتبها لا الحبر أصبح يعنينا ، ولا الورق [2]

ومن بين الجرائم التي هزت العالم بأسره وأثارت حفيظة شاعرنا والشعب الجزائري كله جريمة إعدام الشهيد البطل " أحمد زبانة" ورفاقه الأحرار الذين كانوا بمثابة قربان للشعب ، يقول مفدي :

يا<<زبانا>>ويا رفاق <<زبانا>> عشتم كالوجود ، دهر مديدا
كل من في البلاد أضحى <<زبانا >> وتمنى بأن يموت <<شهيدا>>!!
أنتم يا رفاق ، قربان شعب كنتم البعث فيه والتجديد !!
فاقبلوها ابتهالة ، صنع الرشـــ ـــاش أوزانها ، فصارت قعيدا!!
واستريحوا ، إلى جوار كريم واطمئنوا ، فإننا لن نحيدا !![3]

وليس من قبيل الصدفة أن يتضافر الشعراء ممن واصلوا رسالة القول من الرعيل الأول أو بدأوها من السباب الصاعد على تأكيد ظاهرة الصمت هذه بل تقديسها ، والاعتزاز بإخلاء الميدان للغة الرصاص واستحياء الشعر من السلاح المفصح المبين فمفدي زكريا يبعث بقصيدة من أعماق سجن بربروس بعنوان <<وتعطلت لغة الكلام...>> وهو لا يرفع صوته مرة إلا ليبايع معبرة السلاح ثم يتوارى في استحياء من عجز بيانه فيقول :

نطق الرصاص ، فما يباح كلام وجرى القصاص ، فما يتاح ملام[1]

---

[1] – المصدر السابق ، ص 25 .

[2] – المصدر نفسه ، ص 29 .

[3] – المصدر السابق ، ص 24.

وقضى الزمان ، فلا مرد لحكمه وجرى القضاء ، وتمت الأحكام ...

ويطل مفدي على الثورة الجزائرية إطلالة أبي تمام على فتح عمورية فيقول :

السيف ، أصدق لهجة من أحرف كتبت ، فكان بيانها ، الإبهام
والنار ، أصدق لهجة ،فاكتب بها ما شئت ، تصعق عندها الأحلام
إن الصحائف للصفائح أمرها والحبر حرب والكلام كلام
عز(المكاتب) ، في الحياة (كتائب) زحفت كأن جنودها الأعلام
خير المحافل في الزمان جحافل رفعت ، على وحداتها الأعلام
لغة القنابل ، في البيان فصيحة وضعت ، لمن في مسمعيه صمام [2]

ولا يستنكف مفدي أن يسبغ الألوهية على الرشاش ، فيسجد له سجدة العبودية والإجلال، بل هي الدنيا تهتز وتضج للإله العملاق وآياته المعجزات فيقول مفدي :

وتكلم الرشاش جل جلاله فاهتزت الدنيا وضج النير
ونزلت آياته لهابـــة لواحة ، أصغي لها المستهتر[3]

ولم يغفل مفدي في ديوانه عن المتمردين الذين طالبوا تجنيدهم لمحاربة جيش التحرير الجزائري كشرط أساسي للاستسلام يقول في قصيدة <<إلى الذين تمردوا >>

ما للعصابة في الجزائر مالها ؟ ما للجبابر ، ساجدين جبا ـــــها ؟
ما للعصاة ، على العتاة تمردت فغدت تصب ، على (الرؤوس) نكالها
ما بالها ، بعد الدلال ، تنكرت لبلادها ؟ ومن الذي أوحى لها ؟
فهل الجزائر أفرغت فضلاتها ؟ وهل الجزائر ، أخرجت أثقالها ؟[4]

---

[1] – المصدر نفسه ، ص 41.

[2]– المصدر نفسه ، ص 41 ، 42.

[3]– المصدر نفسه ، ص 110.

4 – المصدرالسابق، ص 135 .

الرؤوس : المراد بها رؤساء الدولة و قاداتها.

من البديهي أن يتوق الشعب الجزائري إلى الحرية ، ويرفض الرضوخ لسلطة تختلف عنه في كل شيء ، في العقيدة والوطن واللغة والجنس ...

فذلك من طبيعة الإنسان الذي ينشد الحرية ويرفض القيود بطبعه ، لكن الذي عمق تعلق الجزائريين بالحرية هو ما كان يمارسه المستعمر في سياسته بالجزائر من كبت واستعباد ومصادرة لجميع الحريات ، فحتى مشاركة النسبة الضئيلة من [1] الجزائريين في المجالس النيابية كانت شكلية ، فلم يكن المستعمر يختار إلا من يواليه من جهة ، ومن جهة أخرى كان يفرض عليهم سياسته ويملي عليهم موافقة حتى يصبحوا في يده دمى يحركها كما يشاء :

واسترقت نوابها ليس إلا ذمم كالدمى تباع وتشرى[2]

هذه الوضعية بلغ سيلها الزبى قبيل اندلاع الثورة بقليل ، فقبلها بسنة واحدة يتعرض الشاعر في قصيدة له للنواب الجزائريين وذوي المناصب والموظفين فيوسعهم نقدا ، وتقريعا ، ويشرح مخازيهم وتقاعسهم عن خدمة وطنهم التعيس فليس بالمجالس إلا أصنام تحركها يد المستعمر ، وليس في القيادة إلا أبقار معممة تدفعها بطانة السوء إلى العار والفساد ، وليس في الوظائف إلا أخشاب هامدة لا تستجيب لداعي الحسنى عندما يناديها :

وفي المجالس أصنام تحركها يد المعمر تحميها التقاليد
رموا بها الشعب كالبهتان تحسبها شهادة الزور ترويها المناكيد

1- ينص القانون الذي أصدرته فرنسا سنة 1947 على أن المجلس الجزائري يتكون من مائة و عشرين نائبا ،نصفهم يمثل الأوروبيين و المندمجين ، و النصف الثاني يمثل جميع الأهالي و من المعروف أن عدد الفئة الأولى لا يتجاوز المليون الواحد ، بينما تتجاوز الفئة الثانية تسعة ملايين نسمة أي هذا القانون يسوي في التمثيل النيابي من حيث عدد المقاعد بين مليون واحد من الأوروبيين و تسعة ملايين من الجزائريين.

2 – مفدي زكريا : اللهب المقدس ، ص 282.

وفي القيادة أبقار معممة للعار تدفعها غربانها السود
وفي الوظائف أخشاب مسندة لا يستجيبون للحسنى إذا نودوا[1]

وإذا كان النقد موجها للجزائريين مباشرة ، فإنه موجه أيضا للاستعمار الذي لا يختار إلا من يسير في خطاه ، فلو لم يكونوا كذلك لما وصلوا إلى تلك المناصب .

هذا الجو الخانق جعل الجزائريين يتلهفون إلى الحرية أشد ما تكون اللهفة ، ولذلك فإن مجرد اندلاع الثورة كان عندهم بمثابة الاستقلال ، فماداموا ثائرين على المستعمر غير راضخين لحكمه واستعباده ، فإنهم أحرار مستقلون ، والشهداء الذين يموتون في سبيل الحرية إنما يموتون مستقلين حتى قبل الاستقلال الفعلي الرسمي ، يقول مفدي زكريا :

و في استقلالنا متنا كراما و بلغنا الرسالة من تغابى [2]

هذا ما يمكننا قوله حول " الشعر الثوري" عند " مفدي زكريا" من خلال ديوانه " اللهب المقدس" ، إلا أننا لا نستطيع أن نلم إلماما تاما وواسعا بثورية شاعرنا ، فهي لا تتجسد في ديوانه المشهور اللهب المقدس فقط ، بل في كل كلمة نطق بها منذ سنة 1925حتى وفاته يوم (17أوت 1977) .

---

1 - المصدر نفسه، ص 266 – 267.

2 – اللهب المقدس ، ص 41.

الفصل الثالث

دراسة فنية في القصيدة الثورية عند مفدي زكريا

1-الصور البيانية

أ-الاستعارة

ب-الكناية

2-الاقتباس من القرآن الكريم

3-اللغة و الأسلوب

4-الصورة الشعرية

5-الموسيقى

أ-الموسيقى الخارجية

ب-الموسيقى الداخلية

6-الرمز

البناء الفنـــي في ديــوان " اللهب المقــدس" :

إن دراسة اللهب المقدس فنيًا هي عملية متعددة الجوانب نظرًا لطوله وتعدد مضامينه وتشعب أفكاره وعبقرية مؤلفه ، ولهذا انتهجنا لهذه الدراسة منهجًا مبسطًا نحاول من خلاله الإلمام بكل ما هو فني في ديوان " اللهب المقدس".وهذا المنهج اعتمدنا فيه على دراسة عامة للهب المقدس وما يميزه من تضمين واقتباس وصور بيانية ومحسنات بديعية أي دراسة بلاغية وأخيرًا تطرقنا إلى حضور الرمز .

دراســــــــــــــة بـــــــــلاغيـــــــــــة :

لقد استحسن الجاحظ هذا التعريف للبلاغة <<لا يكون الكلام يستحق البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك>>.[1]

ونلاحظ هنا أن الجاحظ يركز على اللفظ الذي يصل به الشاعر إلى المعنى فيكون أثره مباشرًا على القلب فهو منزه عن الاختلال ومصون من التكلف وبعيد عن الاستكراه <<فأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه ظاهر لفظه فإن كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا وكان صحيح الطبع بعيدًا عن الاستكراه ومنزهًا عن الاختلال مصُونًا عن التكلف ، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة >>.[2]

---

1 – الجاحظ : البيان و التبيين، ج 1 مكتبة الخانجي ، مصر 1998 م ،ص 115.

2 – المرجع نفسه ، ص 83.

وقد جاء اللفظ في اللهب المقدس كما وصفه الجاحظ تمامًا لأن مفدي لا يعتبر الشعر صناعة حتى يأتي لفظه متكلفًا بل هو إلهام وعفوية لذلك تأتي الألفاظ مؤثرة في القلوب قبل الآذان فيقول : <<...والشعر الحق في نظري إلهام لا فن وعفوية لا صناعة >>[1] .

وبلاغة اللفظ تنبع من صدق الإحساس عند مفدي فهو يكتب الشعر بريشة من عروق قلبه خاصة عندما يكتب عن الجزائر <<...وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطولة...>>[2]

1-الصـــــــــــــور البيـــــــــــانـــــــية :

<<يبدأ القزويني بتعريف علم البيان بأنه : علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.>> [3]

أ-الاستـــــــــــــعارة :

و يعرّف السكاكي الاستعارة بقوله : << أن تذكر أحد طرفي التشبيه و تزيـد بـه الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه مـا يخص المشبه به>>[4] ، و أصل الاستعارة تشبيه حُذف أحد طرفيه ، و هي من حيث هـذا الاعتبار تصريحية و مكنية ، و يقول الجرجاني :<< فأما الاستعارة فهي أحد أعمدة الكلام

---

1 – مفدي زكريا : اللهب المقدس ، ص 7 .

2 – المصدر نفسه، ص 7.

3 –عبد العزيز عتيق : في تاريخ البلاغة العربية ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت –لبنان ، 1970 م ، ص 306.

4 –عبد العزيز عتيق : المرجع نفسه ، ص 275.

و عليه المعمول في التوسع و التصرف ، و بها يتوصل إلى تزيين اللفظ و تحسين الـــنظم و النثر >>[1].

و أما مفدي فلم يغب عن شعره هذا العماد و النماذج في اللهب المقدس عديدة منها:

رافلاً في خلاخل زغردت تمـــــ ـــلأ من لحنها الفضاء بالبعيدا [2]

استعارة مكنية حذف المشبه به (المرأة) التي تضع الخلاخل و تزغــرد و تــرك بعــض لوازمه ، و قد ذكر المشبه.

حالما كالكليم ، كلمه المجـــ ـــد فشد الحبال يبغي الصعودا.[3]

استعارة مكنية حذف المشبه به (الإنسان) و تركت لازمة من لوازمه هي الكـــلام و شـــد الحبل لأن المجد (المشبه) لا يتكلم و لا يرسل حبلاً.

صرخة ترجف العوالم منها و نداء مضى يهزُ الوجودا [4]

شبه العوالم بالإنسان يرتجف و يخاف و كذلك الوجود يهتز و كأنه يسمع و يحس و يشعر (استعارة تصريحية).

و سرى في فم الزمان <<زبانا>> مثلا في فم الزمان شرودا [5]

استعارة مكنية شبه فيها الزمان بالإنسان الذي روى و حكا و قصّ بطولات "زبانا" عبـــر الأجيال و الأزمان فخلّد ذكرى هذا البطل الشهيد.

---

[1] –عبد القاهر الجرجاني : كتاب الوساطة ، موقع مخطوطات الأزهر الشريف ، مصر ، (د.ت)، ص 319.

[2] –اللهب المقدس ، ص 17.

[3] –المصدر نفسه ، ص 17.

4 – المصدر نفسه ، ص 17.

5 –المصدر نفسه ، ص 18.

و اندفعنا مثل الكواسر نرتا د المنايا ، و نلتقي البارودا [1]

شبه الموت التي يجدها المجاهدون أينما توجهوا ، بالمقاهي التي يرتادهـــا النـــاس يوميـــا والبارود كأنه جار أو صديق يلتقون به أينما حلوا.

من دماءٍ ، زكية ، صبّها الأحـــــ ــرار مصْرَفِ البقاء رصيدا [2]

استعارة مكنية شبه فيها الشاعر دماء الشهداء بالأموال التي تصب في الأرصدة و البنوك.

و استشيطي على العروبة غيظا واملئي الشرق و الهلال وعيدا [3]

شبه فرنسا بالنار التي تزداد اشتعالاً حقدًا و غيظًا.

و يا أرض رحماك ألاّ تبلغي صبايا البلاد و أطفالها [4]

استعارة مكنية في (رحماك) فكأن الأرض شخص يستعطف و تطلب منه.

يا سيل قف ، و احتشم ، إنّ في طريقك أكباد يُرثى لها [5]

استعارة مكنية يطلب الشاعر من السيل الجارف أن يحتشم و يتوقف فهو يجرف أرواحًـــا بريئة.

ففي الحيّ قوم عراة حفاة جياع تصارع آجالها [6]

---

1 – المصدر السابق ، ص 19.

2 - المصدر السابق ، ص 20.

3 - المصدر السابق ، ص 23.

4 – المصدر السابق ، ص 234.

5 – المصدر السابق ، ص 231.

6 –المصدر السابق ، ص 235.

استعارة مكنية في (تصارع آجالها) فكأنّ الناس في مدينة الأصـــنام المنكوبـــة بـــالزلزال والمرافق بالفيضان يتصارعون مع الموت ، و يبحثون عن سبل النجاة و يتعلقون بأي أمل للنجاة.

فيا لعنات احصدي ، أنفسا عن الشعب تمسك أموالها [1]

الشاعر يعبر عن كرهه لأولئك البخلاء الذين يمسكون عن الشعب الأموال ، و يلقي عليهم بلعنات كأنها آلة حصاد تقضي عليهم .

إنّ الجزائر لم تنم عن ثأرها و تنسط ألم المصاب الأعصر[2]

استعارة تصريحية يشبه الجزائر بالرجل الذي لم يستطع أن ينام لأنه يتبع ثأرا لا ينساه.

و الجرح لا يطوى على علاته و الدّهر يقبل كالحظوظ و يدبر.[3]

يشبه الدّهر بالإنسان يقبل و يدبر أي يتقدم و يتراجع (استعارة تصريحية).

و هزت (جبهة التحرير) شعبا فهبّ الشعب ينصب انصبابا.[4]

استعارة مكنية (فهبّ الشعب ينصب انصبابا) و كأنه مياه ووديان تتدفق و تتجمـــع ملبيـــة ثورة التحرير.

و أوفدت الرصاص ، ينوب عنها يناقش غاصب الحق الحسابا [5]

---

1 – المصدر السابق ، ص 236.

2 – المصدر نفسه ، ص 116.

3 – المصدر نفسه ، ص 117.

4 – المصدر نفسه ، ص 34.

5 – المصدر نفسه ، ص 35.

استعارة مكنية شبه الرصاص بالسفير (المندوب) أو النائب الذي يناقش و يوضح رأي الجزائر أمام الغاصب.

فأيقظت القنابل من تعامى و أسدل فوق ناظره نقابا [1]

استعارة مكنية فكأن القنابل شخص حكيم أيقظ المنخدعين من غفلتهم .

و في صحرائنا جنات عدن بها تنساب ثروتنا انسيابا [2]

استعارة تصريحية ، فالشاعر هنا لم يقصد مطلقًا بجنات عدن جنات العدن في عالم الغيب و إنما قصد واحات النخيل .حذف المشبه و المشبه به مذكور و العلاقة هي علاقة مشابهة.

و دسنا غرور الدّهر في كبريائه فصعر خدّا و انحنى يطلب العذرا [3]

استعارة مكنية شبه فيه الغرور بشخص مغرور ذي كبرياء لكنه يعتذر معترفًا.

و خضنا تصاريف الزمان، نروضها و نصدع –بالأعجاز– أحداثها السكرى [4]

استعارة مكنية فكان الزمان حيوان مفترس يروض.

و رعنا الليالي الحبليات فأجهضت و لم نك نخشى من عجائبها شرا[5]

استعارة مكنية شبهت الليالي بامرأة حبلى فأجهضت.

---

1 – المصدر السابق ، ص 35.

2 – المصدر نفسه، ص 39.

3 – المصدر نفسه ، ص 255.

4 –المصدر نفسه ، ص 255.

5 –المصدر نفسه ، ص 255.

و انطلق عيسى الإنس ، بعد وفاتهم فألهمنا في الحرب أن ننطق الصخرا [1]

استعارة مكنية لأن الصخر لا يتكلم والإنسان هو الوحيد الذي يملك هذه الخاصية .

ب-الكنـــــــــــــــــــاية:

في اللغة هي أن تتكلم بشيء تريد غيره ، أما في الاصطلاح فهي : لفظ أريد بـــه لازم معناه ، مع جواز إرادة المعنى الأصلي .وظف مفدي الكناية للتعبير عـــن المعنـــى تلميحًا لا تصريحًا و إفصاحًا كلما اقتضى الحال ذلك و قد أبدع في الكناية و من اللهـــب المقدس نقدم هذه النماذج:

لفّه جبرائيل تحت جناحيـــــ ـــه إلى المنتهى رضيًا شهيدا [2]

كناية عن عيسى عليه السلام الذي رفعه الله إلى السماء و ظنوا أنهم صلبوه .

كم أتينا من الخوارق فيها و بهرنا بالمعجزات الوجودا[3]

كناية عن الثورة التحريرية و بطولاتها التي تعد من الخوارق و المعجزات.

و جيوش، مضت ، يد الله تز جيها ، و تحمي لواءها المعقودا [4]

(يد الله تزجيها) كناية عن تأييد الله تعالى للمجاهدين في الجبال.

فمضى الشعب بالجماجم يبني أمة حـــــــــــرة و عز وصيـــدا [5]

كناية عن عدد القتلى و الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الوطن.

---

1 – المصدر السابق ، ص 256.

2 –المصدر السابق ، ص 18.

3 – المصدر السابق ، ص 19.

4 – المصدر السابق ، ص 19.

5 – المصدر السابق ، ص 20.

أمن العدل صاحب الدار يشقى و دخيل بها يعيش سعيـــــــــدا [1]

صاحب الدار كناية عن الجزائري و دخيل كناية عن الاستعمار.

سوف لا يعدم الهلال صلاح الدين فاستصرفي الصليب الحقودا [2]

كناية عن الحقد الصليبي على الإسلام و الحروب الصليبية ضد صلاح الـــدين الأيـــوبي والدين الإسلامي .

إنّ من يهمل الدروس و ينسى ضربات الزمان لن يستفيدا [3]

كناية عن نسيان فرنسا لهزائمها السابقة و عدم اعتبارها منها.

و كيف تريـــــد البقاء ،بلا د تعد الضفـــــادع أبطالـــها [4]

الضفادع كناية عن عملاء الاستعمار و الانقسام بين الأحزاب قبل ثورة 1954.

و الناس في الأطماع يأكل بعضهم بعضا و يبتلع الضعيف الأكبر[5]

كناية عن الظلم و تسلط القوي على الضعيف.

إن كانت الحبّات أمسِ زبرجدًا فاليوم حبّات الرصاص العنبر[6]

كناية عن القمح الذي كانت فرنسا تشتريه من الجزائر و لم تدفع ثمنـــه و بســـببه وقعـــت حادثة المروحة الشهيرة.

و فجر بئر <<مسعود>>بلال فاذن و استمال له الرقابا [1]

---

1 – المصدر السابق ، ص 22.

2 – المصدر السابق ، ص 23.

3 – المصدر السابق ، ص 23.

4 – المصدر السابق ، ص 235.

5 – المصدر السابق ، ص 117.

6 – المصدر السابق ، ص 119 .

كناية عن البترول (الذهب الأسود).

زكت وتبانه عن ألف شهر قضاها الشعب يلتحق السرابا [2]

كناية عن الزمن الطويل الذي دام فيه الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

و حدثنا عن يوم بدر محمد فقمنا نضاهي في جزائرنا بدرا [3]

كناية عن ثورة التحرير التي تدافع عن الحق و سيكون مصيرها النصر كغزوة بدر التـــي انتصر فيها المسلمون على الكفار لأن الله تعالى دعّمهم و نصرهم.

و نعصف بالأصنام نذرو حطامها هشيما ، و ندعو للهدى الأنفس الحيرى [4]

كناية عن الاستعمار الذي يتغلب عليه الثوار و يفرضون عقيدتهم و لغتهم.

2-الاقتبـــاس من القـــرآن الكريـــم :

أول ما يلاحظه المتصفح لأبيات اللهب المقدس ذلك الاقتباس (التناص) القرآني والتراث الديني <<فللوهلة الأولى نكتشف أن شعره استلهام التراث منوعًا باستخدامه ومتعمقا في دلالتها >>[5] .

و<<الاقتباس أن يتضمن المتكلم كلامه كلمة من آية أو آية من كتاب الله خاصة ...وأشار الجاحظ إلى أن خطباء السلف الطيب ، وأهل البيان من التابعين كانوا يسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي "الشوهاء" >>.[1]

---

1 -اللهب المقدس ، ص 35.

2 المصدر السابق ، ص 33.

3 -المصدر السابق ، ص 256

4 - المصدر السابق ، ص 259.

5 - حجاب عبد اللطيف : تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكريا ،جامعة المسيلة ،ص 53.

لقد تداخلت لغة مفدي زكريا مع القرآن الكريم حتى صار التناص طابعًا مميزًا لشعره <<فالشاعر قد أفاض في هذا المجال باستعمال تقنيات التضمين والاقتباس من التراث الديني عامة والقرآن خاصة ، مشكلاً بذلك ما يعرف بالتناص حسب المفهوم الحديث>>.[2] واللهب المقدس لم تشذ عن هذه الميزة الخاصة في شعر مفدي ومن نماذج التضمين وتداخل اللغة الشعرية تعبيرًا وتصويرًا بلغة القرآن الكريم ما يلي :

زعموا قتله ...وما صلبوه ليس في الخالدين ، عيسى الوحيدا [3]

فهذا تعبير قرآني حيث شبه الشهيد بالنبي عيسى عليه السلام الذي رفعه الله إليه ولم يمت، وأنّ الشهيد عند الله حي يرزق، وهذا مقتبس من قوله تعالى:

<<وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِهَ لَهُمْ >>[4]سورة النساء آية 157.

تنزل روحها ، من كل أمر بأحرار ، قد أهابا [5]

بإذن الله

تضمين من الآية الكريمة:

<<تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِهِمْ مِنْ كُلِ أَمْرٍ >>سورة القدر آية 4 .

أم أرض ربك ، زلزلت زلزالها كما طغى ، في أرضه المستعمر ؟ [1]

---

1 – عبد العزيز عتيق : في تاريخ البلاغة العربية ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ،1970 ، ص 128.

[2] – حجاب عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص 54.

[3] – اللهب المقدس ، ص 17.

[4] – المصحف الشريف ، رواية حفص ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، مصر ،كتاب الإدارة العامة للبحوث و التأليف و الترجمة ، رقم 79 ، 2008/6/5.

[5] – اللهب المقدس ، ص 34.

تضمين مع الآية الكريمة :

<<إِذَا زُلْزِلَت الأَرْضُ زِلْزَالَهَا >>سورة الزلزلة آية 1 .

ودسنا غرور الدّهر في كبريائه فصعر خدا! وانحنى ، يطلب الغدرا[2]

تضمين مع الآية الكريمة :

<< وَلاَ تُصَعِرْ خَدّكَ لِلنَّاس >> سورة لقمان الآية 18 .

وما دلنا عن موت من ظن أنه سليمان –منساة – على وهمها خرا [3]

فهذا وصف لعظمة الثورة التحريرية ورسوخ أقدامها وصلابة مواجهتها للظلم والطغيان

وقد تناص مع الآية الكريمة التي تتحدث عن قصة النبي سليمان عليه السلام.قال تعالى:

<<فَلَمَا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْت ، مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَةُ الأَرْضِ ، تَأْكُل منسَاته ، فَلَمَا خَرَ تَبَيَنَتِ الْجِنُ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلمُونَ الْغَيب مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ المُهِين >>سورة سبأ الآية 13.

وحملها الناس أثقالهم فأخرجت الأرض ، أثقالها [4]

وقال ابن أدم في حمقه يسائلها ساخرا : مالها ؟؟

تناصت هذه الأبيات مع قوله عز وجل:

<<وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا >>سورة الزلزلة الآية 2.3.

ألا إن إبليس أوحى لكم ألا إن ربك أوحى لها !![5]

---

[1] – اللهب المقدس ، ص 115.

[2] – اللهب المقدس ، ص 255.

[3] – اللهب المقدس ، ص 255.

4 – اللهب المقدس ، ص 233.

[5]– اللهب المقدس ، ص 233.

تضمين مع الآية الكريمة :

<<بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا >> سورة الزلزلة الآية 5 .

وقد اختار مفدي ظل القرآن الكريم الذي لا يوجد له مثل في بلاغته وبيانه ونظمه يقول الجاحظ :<< وفي كتابنا المنزل ، الذي يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد>>[1].

وقد برع مفدي في هذا التضمين فاستغل صوره وعباراته للتعبير عن دلالات يريدها الشاعر وذلك دون تكلف أو افتعال <<الشاعر استطاع ببراعة تامة تضمين شعره من الموروث الديني ليجعله متناسبًا والمعنى المراد تبليغه للمتلقي بكل ما يحمله من ثقل التأثير والفاعلية ، وصولاً للفكرة المنشودة >>[2].

3- اللـــغـــــــــــــــــة والأســـــــــــــــــلـــوب :

إن ارتباط اللغة بالأسلوب كارتباط الروح بالجسد ، لذلك رأينا من الضروري أن لا يكون الحديث عن الأسلوب بمعزل عن لغة الشاعر ذلك لأن تجربة الشاعر بلغته أوثق من تجربة القاص أو مؤلف مسرحية وذلك لأن الشاعر يعتمد على ما في قوة التعبير من إحياء بالمعاني في لغته التصويرية .[3]

---

[1] – المرجع نفسه ، ص 233.

[2] – الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج 4 ، دار الجيل للطبع و النشر و التوزيع بيروت لبنان 1996 ،ص 60.

[3] – محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ، نقلا عن بري الحواس ص 415.

فاللغة قيمة كبرى ودور خطير في الشعر لأنها أداته التي يكتسب بها وجوده فنًا بين الفنون ، فإذا كانت الألوان أداة الرسم ، والحجارة والمواد الجسمة أداة البناء فإن اللغة هي أداة الشعر[1].

قد وردت لفظة الأسلوب بمعناه اللغوي في لسان العرب بأنه يقال للسطر من النخيل أسلوب وكل طريق ممتد فهو أسلوب والأسلوب الطريق والوجه والمذهب ، يقال أنتم في الأسلوب سوء ، والأسلوب الطريق تأخذ فيه ، والأسلوب بالضم الفن : يقال أخذ فادن في أساليب من القول أي أفانين من أماني المصطلح النقدي فهو ما ليس شائعًا ولا عاديًا ولا مصوغًا في قوالب مستهلكة وهو طريقة خاصة لمؤلف واحد أو شاعر واحد وقد عرفه " شارل CHARLE" بأنه تحول فردي في الكلام، وعرفه "ليو سبينز" بأنه تحول فردي بالقياس إلى المستوى العادي وقد فسرت عبارة " بوخن" المشهورة <<الأسلوب هو الرجل>> دون شك بأن أحد لا يستطيع أن يرفض تطبيق المصطلح على اللمسات الشخصية لكل شاعر وعلى طريقته التي ينفرد بها بيننا .[2]

من خصائص اللغة الشعرية عند زكريا نجد الدقة والفخامة والجزالة بالإضافة إلى قوة الكلام والتعبير عن أحكام البناء للجملة فالكلام عنده محكم ومتماسك وفي الجملة ترابط وتلاحم بين الألفاظ وتتجلى بقصر الجملة عنده بصفة عامة ووضوحها النحوي والمعنوي وعمقها المضموني ، حيث استعمل لكل مقام مقال ويتضح ذلك من خلال قوله في الذكرى الثالثة من ثورة نوفمبر الخالدة :

---

1 – يحيى الشيخ صالح :المرجع نفسه ، ص 363.

2 – بري الحواس : شعر مفدي زكريا دراسة و تقويم ، ديوان المطبوعات الجامعية 1994 م ، ص 323.

تبارك ليلك الميمون نجما وجل جلاله هتك الحجـــــــــــاب
زكت وثباته عن ألف شهر قضاها الشعب يلتحق بالسرابا
تجلى ضاحك القسمات تحكي كوكبه قنابله لـــــــهابـــــــا
بناشئة هناك أســـــد وطأ وأقـــوم منطق وأحـــد نابـا
مضت كالشهب وانحدرت شظايا تلـــــهب في دجنــتها التهابـــــا [1]

فمن خلال هذه الأبيات نجد بأن الثورة لها دور عظيم في إبراز عواطف الشاعر المتقدة حماسًا وحبًا بهذا الوطن العظيم المدى جعل الوطنية تتغلغل في روح أبنائها والوجه الحقيقي للإنسان الثائر والمجاهد الذي يطمح لنيل حرية واستقلال بلاده ،وقد استعمل الشاعر ألفاظا قوية تليق بعظمة الثورة وصلابتها ومن الألفاظ التي تشيع فيها الثورة كقوله: جل جلاله ، قنابله ، لهابا، كواكبه ، الشهب ، الشظايا ، تلهبت ، التهابا .

وقوله أيضا في وصف المجاهدين الجزائريين كيف يتقدمون إلى الحرب وهم واثقون من أنفسهم ومن أجل ذلك يأتي بما يتماشى مع تحديهم ويدل على نفيهم في المبدأ الذي آمنوا به من ألفاظ القوة وعبارات التحدي:

مضت كالشهب وانحدرت شظايا تلهّب في دجنتها التهابـــــا
وثبنا كالكواسر واتخذنا إلى استقلالنا الأرواح طرقـــــا .

4-الصـــــــــــورة الشعـريـــــــــــة :

إنّ الصورة الشعرية ركن هام من أركان الشعر الأساسية التي يعرف بها بعد الإيقاع وقد نالت القسط الوافر من اهتمام الدارسين والنقاد القدامى والمحدثين على السواء ، إلا أن استخدام هذا المصطلح النقدي " الصورة"إنما جاء عن طريق اتصال الثقافة

[1] – اللهب المقدس ، ص 30.

العربية الحديثة بالغربية فمصطلح الصورة الشعرية لم يكن متداولاً بين العرب القدامى وإن كان الشعر العربي لم يخل من التصوير ، إلاّ أن النقد العربي كان يتناول الصورة في مجالات بلاغية : كالمجاز والتشبيه والاستعارة ...أما الصورة بصفتها مصطلحًا نقديًا فهي ترجمة حرفية للفظة الفرنسية "Image"[1] وهذا ما يفسر قلة الدراسات العربية المتخصصة والمهتمة بهذا الجانب الهام في العملية الإبداعية خصوصًا الشعرية منها وهذا ما جعلنا نعتمد على الدراسات الغربية و لنوضح الصورة أكثر نورد هذه المفاهيم للصورة ،فيقول : "برنار قواسي" و يعد من أبرز المنظرين للصورة الشعرية:<< إنها استحضار مشهد من الطبيعة أو عن حقيقة الإنسان إنها إجمالاً ربط الاهتزازات العاطفية التي يريد الفنان أن يولدها في محاولة لمنافسة الأشياء ، و هي نظر إلى العام من أجل الإحساس بالخاص وإلى المعروف من أجل تبرد في مفاتن المكتشف للعلاقة الجديدة بين الأشياء التي هي عبارة عن إبداع نفس>>.[2]

و يعرف بيالر بفردي "الصورة ":<< بأنها إبداع ذهني صرف و هي لا يمكن أن تنبثق من المقارنة و إنما تنبثق من الجمع بين حقيقتين واقعيتين تتفاوتان في البعد، قلة و كثرة...ولا يمكن إحداث صورة بالمقارنة بين حقيقتين واقعيتين بعيدتين لم يدرك بينهما من علاقات سوى العقل >> [3]

---

1 –يحيى الشيخ صالح : المرجع السابق ، ص 317.

2 – محمد ناصر : دراسات في الأدب الجزائري نقلا عن مذكرة :الجزائر المعاصرة من خلال شعر مفدي.

3 – يحيى الشيخ صالح : المرجع السابق ، ص 318.

كما نجد "جارن بارتليمي" يقول أن الصورة كمبدأ هي مصدر جمال الصورة فكلمة Farma التي ترجمتها الصورة في اللاتينية تعني الجمال و إن لم تكن اللفظة في العربية تحمل في ثناياها ظلالا من معنى الجمال كما تحمل في اللاتينية [1] :

و لعل أدق تعريف نجد في مقدمة ابن خلدون حيث يشير إلى أهمية التصوير في العمل الشعري و هو يعرف الشعر :<<بأنه الكلام البليغ المبني على الاستعارة و الأوصاف في أجزاء متفقة في الوزن و الروي>>.

فتكون الصور الحالة التي ترسخ هذا الحب و الوجدان و توصل الشاعر بالأهل، إذا هو لون من التواصل الحي بين الأنا و الآخر بين العذاب و الهناء بين السعادة و الشقاء ولذلك يغادر الشاعر زنزانته إلى مسقط رأسه و يرَوِح محلقًا في الأجواء راسمًا تلك المناظر الخلابة بلغة آثرية بعيدة كل البعد عن تلك اللغة المباشرة الخطابية ، فإذا قصيدته تتدفق بالمشاعر و تكتسب بالأحلام و تتماوج فيها الصور يقول مفدي زكريا:

و في صحرائنا تبر و تمر كلا الذهبين راق بها و طابا
عراجف كالمجرة مشرقات عسالجها انسكبن بها انسكابا
يدغدغ تختها الغنام نايا فينطلق من فم الغنم الربابا
و يدلي في الغدير الحلو ساقا و بالكفين يغترف الشرابا [2]

إنها صورة المواطن الحالمة التي لا تزيد الشاعر السجين إلا تعلقًا بوطنه و مرابع أهله وذكريات قومه ، إنها لوحة من لوحات الرومانسيين ، الذين يصبح الوطن عندهم رمزًا

---

1 – علي البطل : الصورة في الشعر العربي ، دراسة في أصولها و تطورها، دار الأندلس لبنان ، ط 3 ، 1983 ، ص 30.

2 – ابراهيم رماني : أوراق في النقد الادبي ، دار الشهاب باتنة 1985 ، ص 165.

للحب تتماثل فيه الأشياء و تتساوق الأفكار وتمتزج المعنويات بالماديات لتكون هذا الوطن العظيم كما يقول علي الكامل :

و قل الجزائر واضح إن ذكر اسمها تجد الجبابرة ساجدين و ركعا
إنّ الجزائر في الجـــــــود رسالة الشعب حررها و بك وقعا[1]

صورة العربي الفحل الحر كما رسمها عمر بن كلثوم في معلقته الشهيرة وبذلك تتجاوز قصائد الحس الوطني في سجينات مفدي اللحظة الراهنة و الحس الذاتي و اللحظة العابرة الأرجاء الفسيحة ،حيث المبادئ الإنسانية السامية و الحب الصوفي حيث التعلق الكبير لهذا التراب العربي.

إن الجزائر قطعة قدسية في الكون لحنها الرصاص ووقعا
وقصيدة أزلية ، أبياتها حمراء ، كان لها (نوفمبر) مطلعا[2]

لقد استعمل مفدي زكريا تعبيرات فخمة للتعبير عن صورة الوطن – الجزائر–الذي لا يفارقه في اليقظة أو في المنام ، في الليل أو في النهار حيث انغرس هذا الوطن في كل كيانه لا تمحو الآلام صورته في ذاكرته تنتلها من وجدانه مما ضخم هذا الحب إلى العبادة لأن الوطنية إطلالة علوية ترسم اتجاهًا فاسحًا نحو العالم الحر.

و تميزها الأوصاف على صورة شعرية و يوزع القداسة على مراجعها العالية ، فالشاعر الذي آله الرشاش هناك يؤله الجزائر هنا و يرقى بحبها إلى درجة العبودية ووضعه إلى جانب حب الله:

---

1 – مفدي زكريا : اللهب المقدس ، ص 52.

2 – المصدر نفسه ، ص 51.

أرض الجزائر في إفريقيا قدس رحابها من رحاب الخلد إن صدقوا
أحبها مثل حب الله أعبدها آمنـــــــت بالله لا كفر و لا فــرق [1]

إنّ هذه الصرفة تكشف لنا عبودية وطنية عميقة الجذور أصيلة في النفوس لأنها صادرة من الاكتواء بنار العبودية ولوعة البعاد ووحشية السجن و محنة الألم و هذا الموقف مشهور في شعر السجون و لذا استدعاه مفدي و بذلك يصبح التعلق بالوطن ضربًا من الصوفية بل هو ضرب من الجنون و إطلالة علوية لا تخطئها المبالغة.

و تلك المقومات الأساسية من دين و لغة و تاريخ ، ووحدة مصير و مال و منها لا يمكن حصره في هذا المجال من القيم العربية بخاصة التي نجدها عند معظم الشعراء الفرسان الذين ذاقوا مرارة السجن أمثال" بوزيد بن مفرع الحميري" و "علي بن الجهم"و" إبراهيم بن المدبر" .....الخ.[2]

قام يختال كالمسيح وئيدا يتمادى نشوان يتلو النشيدا [3]
باسم الثغر كالملائكة أو كالطفل يستقبل الصباح الجديدا
شامخا أنفه جلالا و تيها رافعا رأسه يناجي الخلودا
رافلا في خلاخل ،زغردت تمـــــ ـــــتلأ من لحنها الفضاء البعيدا
حالما كالكليم ، كلمة المجـــــــ ـــد فشد الجبال يدفي الصعودا

لقد شهد مفدي أول شهيد حصدت رأسه مقصلة العدو ففجر هذا المنظر الرهيب شاعريته بقصيدة قيمة اندفع يرد فيها بطولة الشهيد "احمد زبانة "و هو يصعد إلى المقصلة شامخ

---

1 – مفدي زكريا : اللهب المقدس ، ص 58.

2 – أحمد مختار : البذرة الأسر و السجن في شعوب العرب ، مؤسسة علوم القرآن –دمشق ، بيروت ط 1 ،1985 ص 47.

3 – اللهب المقدس ، ص 17.

الرأس فاختار البحر الطويل لهذه القصيدة ليصور موقف الشهيد المثير للإعجاب فوصف هذا المنظر المؤثر بصورة بلاغية من تشبيه و استعارة و كناية ليظهر صمود هذا الشهيد و لابتهاجه بالموت فهو "يختال كالمسيح " باسم الثغر كالملائكة أو كالطفل شامخًا أنفه جلالاً و تيهًا رافعًا رأسه رافلاً في خلاخل "حالمًا كالحليم".

5-الموسيقـــى :

تعد الموسيقى عنصرًا هامًا من العناصر المهمة التي تبعث على الراحة و إزالة الملل والبعث على التجديد في الحياة ، و لذلك اهتم بها الإنسان منذ زمن بعيد و الموسيقى مجموعة من الأصوات التي يتألف من ضرباتها الموقعة نغم يلمس المشاعر من إيقاعها لحن يهز أوتار القلوب و في الإنسان منذ القديم ميل غريزي للألحان و في روحنا المستجابة و السامع أو التي تكون بين اهتزازات في صوت المنشد و ارتعاشات في قلب السامع و قد تمثلت الصياغة الموسيقية في الشعر العربي في بحوره التي وصلت إلينا ناضجة بفضل "الخليل بن احمد الفراهيدي" (ت 170 هـــ) و قد استطاعت العرب أن تحافظ على القصيدة العربية و أن تتوارثها من جيل إلى آخر عن طريق الكلام الموزون المقفى و ذو النغمة الموسيقية الرقيقة التي تؤثر في القلوب بسرعة ، و تنقسم الموسيقى إلى : موسيقى داخلية و موسيقى خارجية.

أ-الموسيقـــى الخـــارجية :

تعد الموسيقى الخارجية من أهم أسباب خلود الشعر و هذا ما أكده ابن قتيبة في قوله :"وللعرب الشعر لا يبيد على مر الزمان و جرسه بالوزن و القوافي و من النظم و جودة

التعبير من التدليس و التغيير فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عسر ذلك عليه."[1] ومن المعروف أن الشعر هو الكلام الموزون المقفى الذي تتجلى فيه قيمة القافية و هذه الأخيرة لها ايقاع جميل يطوب الأذن لذلك اهتم العرب بحروف الروي –في القصيدة– الذي تكون له دلالة تجمع بين المعنى و الموسيقى.

و عندما استقصينا شعر مفدي زكريا تبين لنا انه كان يلتجئ إلى التنويع في قوافي القصيدة الواحدة و هذا التنوع مرتبط بالحدث أو المناسبة و من ذلك قصيدته التي نظمها عندما فجرت فرنسا القنبلة الذرية في صحراء الجزائر سنة 1956 ، يقول في مطلعها:

ما دهاه ؟ ويل أمه ما دهاه ويلتاه من رجـــيله ويلتـــــاه ؟
ما له في الحياة يولد أعمى لم تر الكون باسما مقلتاه ؟
ما له مقعدا ، يدحرج رجلـــ يه ، و ماذا حي فشلت يداه؟[2]

حيث عبر مفدي زكريا في هذه القصيدة عن مدى حزنه لما أصاب هذا الطفل المسكين وهذا دليل على أن الشاعر يأخذ بعين الاعتبار كل ما يحيط به من مظاهر الحياة السلبية في مجتمعه خاصة و أن أكبر مهام الشعر تعبير عن الإنسان و الواقع و من أهم سماته أنه ثورة على كل ما يقذف جحر عثرة في سبيل تحسين هذا الواقع ،و من هنا فإن حب مفدي لوطنه و أهله لا يحول دون رؤيته لمآسي شعبه و تصرفات الاستعمار الهمجية معه.

و قد استعمل حرف الهاء و بكثرة في هذه الأبيات و هو من الحروف الجوفية يخرج دون عناء و عليه بنى قصيدته ،أما بالنسبة للقافية فقد جاءت انسيابية.أما في المطلع الثاني من

---

1 – بري الحواس : شعر مفدي زكريا دراسة و تقويم ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية.

2 – مفدي زكريا : اللهب المقدس ، ص 161.

القصيدة فقد جاءت القافية موصولة بحرف الألف متبوعة بدخيل ، و العين روي للقصيدة وهو صوت حلـــــــقي له وقـــــع مجلجل :

قذفته إلى الحياة يد المـــــو ت فلم يقض في الحياة ربيعا
و مقته السموم في عالم الغيـــ ـــب ، فرنسا فجاء شكلا مريعا

أما في المقطع الثالث فجاءت القافية مسبوقة بحرف تأسيس و موصولة بألف و هي قافية مطلقة رويها حرف الراء ، يقول :

شبح كالخيال لم يك بالحـــ سيء فيرجي و لم يمت فيواري
عاش حيران في عذاب و بؤس بين قـــوم معذبيـــــــن حيـــارى
ظل يسعى إلى الفناء رويدا يائسا ،لا يغـــالب الأقـــــــــــدار[1]

و ختم الشاعر قصيدته بمقطوعة مقيدة القافية:

شعب إفريقيا أحاط به المكـــــ ر فأمسى للمجرمين ضـــحية

و رمته عبر القرون فرنسا طعمـــة القنـــــــــابل الذريـــة
و يرى الموت فيه ، جيك فجيك يوم هذت شعـــوبه الحيويـــة
شعب إفريقيا ، ستصنفك الـــد نيا و تصغي لك الشعوب الأبية
و يحكي هذا الزمان ، و يروي للبـــرايا فضائـــــح المدنيـــــــــة [2]

و إذا كان النقاد القدامى يعدون القافية الملتزمة في القصيدة و المتحدة في الروي إحدى خصائص الشعر العربي و أحد أسباب خلوده، فإن النقاد المحدثين ذهبوا خلاف ذلك.

و عندما استقصينا شعر مفدي وجدنا الحروف الهجائية التي وردت رويا في قصائده مبينة في الجدول التالي:

---

1 – بري الحواس : المرجع السابق ص 297.

2 – المرجع السابق ، ص 279.

حروف الهجاء (رويا)	عدد المرات في مجمل شعره
-الراء	35
-النون	26
-الميم	24
-الدال	24
-اللام	14
-الفاء	03
-التاء	02
-الباء	09
-العين	07
-القاف	06
-الهمزة	04
-السين	04
-الكاف	03

أما الحروف التي لم ترد رويا في شعر مفدي فهي ما تبقى من الحروف و هي مهملة كروي في شعر مفدي زكريا.

و بالنسبة إلى البحور الشعرية التي استعملها نذكر منها :

الطويل 34% الكامل 19 % البسيط 17%

الوافر 12 % الخفيف 30 % المتقارب و الرمل 20% [1]

ب- الموسيـــــــقـــى الداخـــــلية :

1 – يحيى الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا دراسة فنية تحليلية ، دار البعث قسنطينة ، ط1، 1987 ، ص 298.

إذا كانت الموسيقى الخارجية تعكس شخصية الشاعر في التجديد أو التقليد لمن سبقوه من الشعراء القدامى فإن الموسيقى الداخلية عكس ذلك فهي ذلك الانسجام الصوتي الداخلي الذي ينبع من التوافق الموسيقي بين الكلمات و دلالتها أو بين الكلمات مع بعضها البعض و هذا يعني أن الموسيقى الداخلية هي الاختيار الواعي للكلمات و دلالتها من جهة و بين الألفاظ وما تحققه من انسجام صوتي عن طريق النظم من جهة أخرى .[1]

فالموسيقى الداخلية تعتمد على الإيقاع دائما و الجرس أحيانا باعتبار الجرس نتيجة من نتائج الإيقاع .لهذا فموسيقى القصيدة تختلف من قصيدة إلى أخرى تبعا لاختلاف المواضيع و الحالات و الشعور فهناك موسيقى حزينة مرحة ثائرة عنيفة و هادئة خفيفة وثقيلة... و هذا تبعا لنفسية الشاعر و مشاعره الداخلية و مدى تأثره بالموضوع أو المناسبة.[2]

هذه دمانة الغالية دفـــــــاقـــــه

و على الجبال علامنا خفاقه

و للجهاد أرواحنا سباقـــــــــه.[3]

استعمل مفدي في هذه القصيدة موسيقى هادئة حزينة اعتمد فيها على حروف المد الطويلة بصفة عامة و حرف الهاء بصفة خاصة و من المعروف أن حروف المد تتطلب جهدا في

---

1 – بري الحواس ، ينظر.

2 – يحيى الشيخ صالح : المرجع السابق.

3 – اللهب المقدس ، ص 69.

النطق و اشباعها يجعل النطق بها ثقيلا و فيه شيء من الصعوبة دليلا على الحالة النفسية للشاعر.

و يقول في قصيدة أخرى :

عادني من ظلال أمسك أمسى بين ماضي الأسى و أحلام أنـــس
و شجاني من ذكرياتك كون علوى السمات، أرهـــف حســـي
نرجسي الهوى ، الذي التصابي كالأماني الطـــراب ، في ليل عرس
خافق الوجد في حنايا ضلوعي خفقان الجـــوى ، بأعطـــاف قـــس
فتراءت للعين أطياف ماضي لم يكن للجراح ، في العمق ينسى[1]

نلاحظ في هذه الأبيات انعكاس نفسية الشاعر في موسيقاه الداخلية إذ حفلت الأبيات بحرف السين و هو صوت صفير كشف عن نفسية الشاعر المتآسية ، و قد تجلى ذلك في الكلمات (أمسك ، أنسى ، حسى ، نرجسي ، في ليل عرس) ، فقد تكررت ألفاظ تشترك معاني حرف السين و من هنا يتجلى لنا صدى تأثر الشاعر بهذه القصيدة.

فالموسيقى الداخلية أذن ليست وليدة الألفاظ المتراصة و إنما هو نتيجة حالة نفسية تكشف الشاعر من خلال تجربته أو موقف اهتدى فيه الشاعر إلى ألفاظ لها دلالتها الموجودة في جرسها عند ضمها.[2]

و من كل ما تقدم يتضح لنا أن للموسيقى الداخلية دورًا هامًا في شعر مفدي زكريا، بل إنها تعد من أهم الأدوات الفنية عنده و أبرزها على الإطلاق ، و هذه الظاهرة ستلقي بعض الضوء على جوانب من شاعرية الشاعر ، وتساعد على اكتشاف بعض أسرار

---

1 – اللهب المقدس ، المرجع السابق ، ص 290 نقلا عن بري حواس.

2 – بري الحواس : المرجع السابق ، ص 291.

الإبداع عنده لأن الموسيقى الداخلية تساعد على معرفة مدى صدق الشاعر في عواطفه ومدى معايشته للتجارب التي يعبر عنها، فهي مرآة الوجدان و من الصعب جدا أن ترسم عليها صورة غير الصورة الحقيقية للشعور و هي بهذا أداة في يد الناقد يميز بها الشعور الصادق من الزائف و المتكلف.[1]

6-الرمـــــــــــــــز:

من الأدوات الفنية التي يعتمد عليها كثير من الشعراء – و بخاصة المعاصرين- للتعبيـــر عن تجاربهم و مكنونات صدورهم الرمز ، و هو -كما يعرفه- يونج (Carl Gustav Jung) [2] :<< و سيلة لإدراك ما لا يستطاع التعبير عنـــه بغيـــره فهـــو أفضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له أي معادل لفظي ، هو بديل من شـــيء يصعب أو يستحيل تناوله في ذاته.>> [3]

و هو إذا كان يشبه الصورة في وظيفته إذ يعبر عن التجارب و الشـــعور بطريقـــة فنيـــة تعتمد الإيحاء و إلقاء الظلال فإنه ليس شائعا شيوع الصورة و لا بالغًا أهميتها وضرورتها في الشعر ، و هو -في حقيقته-جزء أو نوع من الصورة أو هو حسب تعبير عز الـــدين إسماعيل :<< وجه مقنع من وجوه التعبير بالصورة>>.[4]

---

1 – يحيى الشيخ صالح : المرجع السابق ، ص 311.

2 -كارل غوستاف يونغ (1875 –1961) ، عالم نفساني و طبيب سويسري ، اهتم بالدراسات النفسية و بخاصة الشعور الجمعي.

3 -مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، دار الأندلس -بيروت- ، ط 2 ،1981 ، ص 153.

4 – عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر -قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية، دار العودة و دار الثقافة ، بيروت، ط2، 1972 ، ص 195.

و في شعر مفدي زكريا نجد أثرًا للرموز التراثية التي استقاها من القرآن الكريم ، وبعضًا قليلاً من التاريخ العربي ، و أقلّ من ذلك من التراث الشعبي ، بعضها ورد عنده في صور بلاغية بسيطة (تشبيه أو استعارة) و بعضها الآخر ورد في صور فنية مركبة ، ومن ذلك:

قام يختال كالمسيح وئيدا يتهادى نشوان يتلو النشيدا [1]

حيث وظف شخصية المسيح عليه السلام ليرمز بها إلى ما يتمتع به أول شهيد بسجن بربروس ، من ثبات على المبدأ و استهانة بالآلام و بالموت في سبيل القضية التي يؤمن بها.

و من الرموز التي تعتمد صورًا بلاغية أيضا ذلك الرمز الذي استقاه الشاعر من التراث الشعبي فيقول :

و النار في مس الجفون (عزيمة) يصلى بها المستعمر المتكبر[2]

فهنا حديث عن دور النار التي ترمز إلى السلاح بشتى أنواعه في مقاومة الاستعمار ، ولكي يؤدي الشاعر هذا المعنى وظف رمزًا استقاه من الطب الشعبي و هو علاج الأمراض العقلية و الجنون عن طريق الكي بالنار ، فالاستعمار في سياسته بالجزائر ، هو مصاب بالجنون ، و لكي يشفى لابد من كيه بالنار ، و النار هنا هي نيران الأسلحة.

و من الرموز التي تعتمد صورًا فنية (غير بلاغية) ، ما وظفه في قوله :

زعموا قتله و ما صلبوه ليس في الخالدين عيسى الوحيدا

---

1 – اللهب المقدس ، ص 17.

2 –مفدي زكريا : اللهب المقدس ، ص 134.

لفه جبريل تحت جناحيه إلى المنتـــهى رضيا شهيـــدا.

فالشاعر هنا يتحدث عن الشهيد نفسه الذي تحدث عنه في أول رمـــز ، باســـتخدام رمـــز المسيح ، فهو وظف رمز المسيح من جديد يدل على معنى آخر ، و هو معنى الخلـــود ، فالمسيح ليس وحده خالدًا في السماء ، بل إن الشهيد "زبانة" أيضا خالد لم يمسه سوء.

و من الرموز التي استخدمها مفدي ووظفها بنجاح ، حيث نقله من المجال المادي البســـيط ، الذي كان عليه في أصله إلى المجال المعنوي الأكثر تعقيدًا حيث يقول مخاطبًـــا شـــهر "نوفمبر":

تبارك شهرًا بالخوارق طافحًا فسبحان من بالشعب في ليله أسرى [1]

قصة الإسراء ، و فيها تنقل الرسول صلى الله عليه و سلم من المسجد الحـــرام بالمدينـــة المنورة إلى المسجد الأقصى بالقدس ، و قد استغل مفدي ما في القصة من إعجاز ليرمـــز بها إلى المعجزة التي حققها الشعب الجزائري بثورته ، فحادثة الإسراء غنية بالدلالة على طي المسافات الطويلة في ظرف زمني قصير فالشاعر ركز على هذه الفكرة ليســـتوحي منها التنقل غير المعقول الذي حققه الشعب الجزائري في وقت قصير (ليلة واحدة).

و من رموزه التاريخية حادثة المعتصم و المرأة العربية ، تلك المرأة التي وقعت في أسر الروم ، و تحكي كتب التاريخ أنه لطمها على وجهها (الرجل الذي أســـر هـــذه المـــرأة) فصاحت :"وامعتصماه" فبلغت صيحتها المعتصم فأجابها و هو على سرير ملكـــه "لبيـــك لبيك" و هو في أمتع لحظات أنسه، و قد وصف مفدي هذه الحادثة في قوله:

---

1 –المصدر السابق ، ص 302.

ظلمـــــونـــي
واستبـــــاحوا الحـــــرمـــا
صحـــــــت
وامعـــــــتصـــمـــــا
لـــــــطمـــــونـــــــــي
لم يراعـــــــو الكـــــرما [1]

حيث يتحدث بلسان جندي من ثوار الجزائر ، و هذا الثائر يستغيث "بالمعتصم" الذي يرمز إلى كل من تتحرك في وجدانه النخوة العربية، فالشاعر يريد –من خلال هذا الرمـــز–أن يجعل من قضية احتلال الجزائر مشكلة عربية عامة ، و من الهبوب إلى تحريرها واجبًـــا عربيًا.

كما نجد شاعرنا قد وظف رموزًا شائعة و معروفة في المجال الديني وماثلة في وجـــدان الشعب العربي المسلم ، مثل شخصية كل من سليمان و موسى و عيسى و إبراهيم و آدم، و محمد صلى الله عليه وسلم. و ذلك ما نجده في قوله:

و ما دلنا عن موت من ظن أنه سليمان –منساة–على وهمـــــها خـــرّا [2]
ورثنا عصا موسى فجدّد صنعها جحافا فراحت تلقف النـــار لا السحرا
و كلم موسى الله في (الطور) خفية و في الأطلس الجبار كلمنا جهرا
و أنطق عيسى الأنس بعد وفاتهم فألهمنا في الحرب أن ننطق الصخـــرا
و كانت لإبراهيم بردا جهنم فعملنا –في الخطب–أن نمضغ الجمرا
و آدم بالتفاح ضيّع خلده و (ماريان) بالتفاح نلقي بها البـــحـــــرا
وحدتنا في يوم بدر محمد فقمنا نضاهي في جزائرنا بـــدرا

---

1 –المصدر السابق ، ص 126.

2– المصدر السابق ، ص 255.

الشاعر هنا بصدد الحديث عن مفاخر الثورة الجزائرية ، و لذلك رصد في أبيات قليلة متتالية طائفة من الرموز كل منها يؤدي معنى ، فديغول يتكئ على عظمة زائفة لم تبهر الجزائريين ، بل تفطنوا إلى أنها عظمة لا طائل وراءها ، لذلك لم يحدث لهم ما حدث لجن سليمان الذين كان قد كلفهم بأعمال شاقة يقومون بها ، فكانوا لا يتوقفون و لا يستريحون خوفًا منه ، لكن لما وافته المنية كان متكئا على عصاه ، و بقي الجن يقومون بأعمالهم ، اعتقادًا منهم بأنه حي ، فجيل الثورة لم يخدعه ديغول بمظهره ،، بل تفطن إلى انه جثة هامدة ، فالشاعر يرمز بحادثة موت سليمان إلى فراسة جيل الثورة هذا الذكاء هو الذي جعل جيل الثورة يجدد صنع عصا موسى بحيث تصبح في يد الثوار أقدر منها وهي في يد صاحبها موسى ، ففي يده كانت لا تلقف إلى السحر ، بينما في يد الثوار كانت تلقف النار.

و إذا كان الله قد كلم موسى خفية ، فإنّ الله كلم الثوار جهرًا في جبال (الأطلس) هذا رمز إلى أن الثورة قامت بإذن الله و بأمر منه.

و إذا كان عيسى قد أنطق الموتى و كلمهم ، فإنه ألهم ثوار الجزائر أن ينطقوا الصخور الصمّاء في الحرب ، و هذا رمز إلى شمولية الثورة.

و إذا كان إبراهيم قد ألقي في النار فكانت بردًا و سلامًا ، فإنه قد علّم الثوار أن يمضغوا الجمر وقت الخطوب ، و هنا رمز إلى القوة و الصبر و شدّة التحمل.و آدم إذا كانت التفاحة قد استهوته فإن فرنسا هي الأخرى ستلقى حتفها نتيجة طمعها.

و محمد صلى الله عليه و سلم حدثنا عن غزوة بدر ، فقام ثوارنا يضـــاهون "بـــدرا" فـــي الجزائر و "بدر "هنا ترمز إلى معانٍ كثيرة توحي بها تلك المعركة ، منها التنبـــؤ بحتميـــة النصر الحاسم للثورة رغم اختلاف الجهتين (الجزائر و الاستعمار) عددًا و عدّة.

إن اقتصار مفدي على القرآن الكريم و التاريخ العربي مصدرين يستقي منهمـــا رمـــوزه دون أن يتعداهما إلى غيرهما من المصادر الأجنبية ، كما يفعل أكثر الشعراء المعاصرين تفسره ثقافته العربية الحق ، و نظرته إليها نظرة التقديس و الإكبار و اعتزازه بهـــا أيمـــا اعتزاز ، بالإضافة إلى عاطفته الدينية التي يصدر عنها في أفكاره و معاينه.

خاتمة

وبعد هذه الرحلة هاهي نهاية المطاف تبرز بهذه الصورة المتواضعة وما ذلك إلا بفضل الله سبحانه وتعالى . ولقد توصلنا من خلال دراسة هذا الموضوع " شعر الثورة عند الشاعر مفدي زكريا": لجملة من النتائج المتمثلة فيما يلي :

1-الشاعر مفدي زكريا من الشعراء الذين حملوا الجزائر في أفئدتهم وحلقوا بها في فضاءات فسيحة ، وناضلوا في سبيل حريتها، وكان في طليعة من نصرها بالقلم، إذ كان ملتزمًا بقضايا وطنه الجزائر فقد أجاد التعبير عن حبه لوطنه ، حين جعل شعره وسيلة لاستنهاض الهمم وبث الروح الوطنية ، وحين صور جمال الجزائر وخلد بطولات ومآثر المجاهدين وعظم الشهداء هنا في أرض الجزائر وهناك في بعض الدول العربية كتونس وفلسطين ...

2-لقد كان مفدي زكريا شاعرًا وطنيًا ثائرًا، وطنيته استمدها من حبه للجزائر التي ملكت عليه قلبه وسلبت لبه وحركت وجدانه فراح يعبر عن آمالها وآلامها أرسل نظره الثاقب فتنبأ بالثورة وهي في مخابئ الغيب وحمل لواءها في أشعاره ونضاله السياسي ، فجاءت قصائده صور صادقة عن الثورة والكفاح .

3- إثبات" شمولية ومصداقية" ثورة الجزائر وعدم كونها مجرد حرب فحسب كما يدعي بعضهم فشمولية الصراع وتعدد الجبهات من حربية وحضارية وثقافية ودينية وسياسية ....والتفكير في المستقبل البعيد كل ذلك كان دلائل قوية على أن ثورة الجزائر ثورة حقيقية .

4- رسم الملامح المأساوية التي نزلت بالشعب الجزائري ، تلك الملامح التي كانت نتيجة لوحشية المستعمر من تعذيب ، وقتل ، ونفي .

5-ومن خلال البعد الفني تمكنا من التعرف على خصائص لغة الشاعر التي تتميز بحس وجداني مرهف ، كما أن الشاعر استعمل في قاموسه الشعري مفردات من القرآن الكريم، والتراث العربي القديم كونه مثقفًا ثقافة عربية إسلامية محافظة ، واللغة في شعره تتراوح بين المستوى السطحي الذي يستخدم فيه الألفاظ بمعناها المعجمي وبين المستوى الوجداني العميق الموحي والمعبر عن نفسية الشاعر، وقد يجتمع هذين المستويين في مستوى واحد ، التشكيل الموسيقي لأشعاره ، فإنّ معظم شعره نظم في قالب البحور التالية : الوافر ، الخفيف، المتقارب ، الرمل، البسيط ، الكامل ، الطويل ، لما فيها من إيقاع ولمناسبتها وملامستها لنبضات قلبه وروحه ، كما التزم وحدة القافية والروي في أغلب أشعاره .

وخلاصة القول أن الشاعر" مفدي زكريا" ثائر متمرد ، كان عنوانًا صادقًا عن آمال الأمة وآلامها وأصبح معنى مقدسًا من معاني المجد والسؤدد والخلود .

تلك مجمل النتائج والملاحظات التي نستنبطها من هذا البحث ولسنا ندعي أننا منحنا الموضوع حقه الكامل، وألممنا بجميع حيثياته بل ما بحثنا هذا إلا لفتة متواضعة ومختصرة لشاعر جزائري لم ننصفه ولم نعطِ الرجل حقه.

وفي ختام هذه الرحلة نؤكد أننا استمتعنا طيلة انجاز مذكرتنا، حيث أدركنا قيمة كل ما كتبناه ،ويبقى أملنا أن تتاح لنا الفرصة من جديد لنغوص في بحور الأدب التي تفيض بمعارفها وإحساساتها وخواطرها .

قائمة المصادر و المراجع

المصادر والـــمراجـــع:

المـــــــصادر:

1- الكتاب العزيز –القرآن الكريم(رواية حفص)

2- مفدي زكريا–إلياذة الجزائر- المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،ورشة أحمد زبانـــة، الجزائر (1986).

3- مفدي زكريا – اللهب المقدس – موفم للنشر والتوزيع، الجزائر (2000) .

المراجـــــــــــع :

1-الأمير خالد بن عبد القادر : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر ، ج1، المطبعـــة التجارية، الإسكندرية ، مصر ، (1903).

2-أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، دار الغرب الإسلامي ، بيـــروت ، ج1، ط1- سنة (1998).

3-محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، سنة (1981) .

4-د. تركي رابح : دراسات تربوية للشخصية الجزائرية ، الشـــركة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيع ، الجزائر ، ط2.

5-مصطفى الأشرف : الجزائر الأمة والمجتمع –ترجمة د.حنفي بن عيسى – المكتبـــة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، سنة(1983) .

6-عمر بن قينة : في الأدب الجزائري الحديث ، (تاريخا ...وأنواعا وقضايا ... وأعلاما) ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر (1995) .

7- أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتـــاب ، الجزائـــر ســـنة (1984) .

8- أنيسة بركات درار : نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريريـــة ، المؤسســـة الوطنية للكتاب، الجزائر ، سنة (1985) .

9- أحمد الخطيب : جمعية العلماء المسلمين الجزائـــريين وأثرهـــا الإصـــلاحي فـــي الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، سنة (1985).

10-محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر ج1، ج2 ، المطبعة التونسية (1926) .

11- يحيى الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا ، دراسة فنية وتحليلية، دار البعث قسنطينة ، ط1 ،(1987م) .
12- عبد المجيد عمراني : النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية (1954-1962) طبعة دار الشهاب ، سنة (1995م) .
13- الحواس بري : شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر .
14- محمد الهادي السنوسي :شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، الشركة التونسية للنشر (1962م) .
15- محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، ط2 ، نشر جمعية التراث العطف ، غرداية .
16- محمد ناصر: رمضان حمود حياته وآثاره ، الشركة الجزائرية للكتاب ، (1983) .
17- محمد ناصر : دراسات في الأدب الجزائري ، نقلا عن مذكرة الجزائر المعاصرة من خلال شعر مفدي .
18- ابن منظور: لسان العرب ، دار صبح وإدسيوفت ، بيروت، لبنان ، ط1، سنة (2006م) .
19- حسن فتح الباب : ثورة الجزائر في ابداع شعراء مصر ، الدار المصرية اللسانية ، ط1 ، سنة (2005م) .
20- أحمد شوقي الرفاعي : الشعر الوطني الجزائري ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، سنة (2010م) .
21- قطب سيد: مهمة الشاعر في الحياة ، دار الشروق ، بيروت .
22- محمد مندور : في الأدب والنقد ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة .
23- ديوان محمد العيد آل خليفة : دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط2010.
24- محمد الأخضر السائحي : أغنيات أوراسية ، ش و ن ت (1979م).
25- محفوظ كحوال: من أروع قصائد مفدي زكريا مع دراسة أدبية ، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع(د ط)(د ت) .

26-نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر " الإتباعية ، الرومانسية ، الواقعية ، الرمزية " ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، (1984)
27- الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، مكتبة الخانجي ، مصر، (1998م).
28- حجاب عبد اللطيف : تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكريا، جامعة المسيلة .
29- عبد العزيز عتيق : في تاريخ البلاغة العربية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان (1970م) .
30- الجاحظ : كتاب الحيوان ،ج4 ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، (1996م) .
31- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث .دار العودة بيروت (1973م) .
32- علي البطل : الصورة في الشعر العربي ، دراسة في أصولها وتطورها ، دار الأندلس ، لبنان ، ط3، (1983م) .
33- ابراهيم رماني : أوراق في النقد الأدبي ، دار الشهاب ، باتنة ، (1985م) .
34- أحمد مختار: البذرة الأسر والسجن في شعوب العرب ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، بيروت ، ط1، (1985م) .
35- جونسون وأخران : الجزائر الثائرة ، ترجمة محمد علوي وآخران ، وزارة الإرشاد القومي ، القاهرة ، سنة (1957م).
36- عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، ط2، (1972م) .
37- مصطفى ناصف: الصورة الأدبية ، دار الأندلس بيروت ، ط2، (1981م) .

الجرائد والمجلات :

-الشهاب ج12 ، م13 فيفري 1938.
-الشهاب ج11، م6 ديسمبر 1930.
-جريدة وادي ميزاب ،عدد 42 جويلية 1927.
-جريدة النصر أوت 1988.
-المجلة التاريخية المغاربية 1980.

المواقع الإلكترونية :

http://today.almasry lyoum.com

موسوعة ويكيبيديا الحرة .

الفهرس

فهرس الموضوعات

الموضوعات .....الصفحة

مقدمة.....أ-د

مدخل :المناخ الديني و الأدبي و الاجتماعي و السياسي في فترة الاحتلال.

1-المناخ الديـــني و الأدبـــي.....8

2-المنـــاخ الاجتمـــاعي.....16

3- المنـــاخ السيـــاسي.....23

الفصل الأول : نبذة عن حياة الشاعر "مفدي زكريا"

1-نسبه.....31

2- أسرته.....31

3- عوامل نبوغه.....31

4- شخصيته.....34

5-شاعريته.....38

6-نشاطه السياسي.....40

7-وفاته.....42

8-إنتاجه الأدبي 42

الفصل الثاني :الشعر الثوري عند مفدي زكريا

1-مفهوم الثورة 47

2-مفهوم الشعر الثوري.....48

3-دور الشعر الثوري في الكفاح المسلح.....50

4-خصائص الشعر الثوري الجزائري.....51

5-نماذج من الشعر الثوري عند بعض الشعراء الجزائريين.....55

6-الشعر الثوري من خلال " الإليـــــاذة".....58

7-الشعر الثوري من خلال ديوان "اللهب المقـــدس".....62

الفصل الثالث : دراسة فنية في القصيدة الثورية عند مفدي زكريا

1-الصور البيانية.....78

أ-الاستعارة.....78

ب-الكناية.....83
2-الاقتباس من القرآن الكريم.....85
3-اللغة و الأسلوب.....88
4-الصورة الشعرية.....91
5-الموسيقى.....95
أ-الموسيقى الخارجية.....96
ب-الموسيقى الداخلية.....99
6-الرمز.....101
الخاتمة.....109
قائمة المصادر و المراجع و المجلات